المكتبة الثقافية
١٥٩

حياة القرى

محمود أبو زيد



الدار المصرية للتأليف والترجمة

١٥ يونية ١٩٦٦

توزيع

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

تليفون : ٩٠٨٩٢٠ - ٩٠٥١٤٧

المقدمة

لم يجمع الناس على شيء كما أجمعوا على أن القرية المصرية تعانى أمراضا كثيرة وتشكو عللا مختلفة ضربت فى مفاصلها وأعرقت فيها ، وان هذه العلل وتلك الأمراض لم تجد على مر السنين وامتداد الزمن من يُعنى بمداواتها أو يمد يده لعلاجها ، أو يخفف من وطأتها .

وعلى أن صيحات الاصلاح فى الماضى كثيرا ما تجاوبت ، ووعود أولى الأمر فينا طال ما ترادفت ، فان هذه القرية قد ظلت كما هى تنخر العلل فى عظامها ، وتشيع الأمراض بين أجزاء جسمها حتى قامت الثورة فى سنة ١٩٥٢ ، فأخذت تعالج هذه العلل وتعمل على اعداد الدواء الناجع لها .

منذ أكثر من ثلث قرن كتبنا مقالات كثيرة وصفنا فيها (حياة القرى)[١] من جميع نواحيها الاجتماعية والصحية والعلمية والاقتصادية والدينية ، فكان هذا الوصف كالمرآة الصادقة لهذه الحياة فى فترة من الزمن ، ووضعنا هذه المرآة

---

(١) نشرت هـذه المقالات بجريدة المقطم فى سنة ١٩٣٢ وما بعدها وكذلك فى مجلتى الرسالة والفتح .

أمام نظر كل من يريد أن يعرف حياة القرى المصرية فى هذه الفترة .

ومما لا ريب فيه أن أهل القرى هم العمود الفقرى فيها ، والأيدى القوية التى تعمل لرفع شأنها .

ولقد كان الغرض الذى وضعناه نصب أعيننا ، من وراء نشر ما نشرنا ، أن يتيح الله لهذه القرى من المصلحين من يشمرون عن سواعد الجد لمداواة أدوائها واصلاح مرافقها .

وقد نالت كلماتنا حينئذ والحمد لله رضا الناس وتقديرهم ، وكانت جريدة المقطم تنشر مقالاتنا فى صدرها بعد مقالة رئيس تحريرها وأشادت بها غير مرة فقالت فى عددها الصادر فى يوم ٢٢ فبراير سنة ١٩٣٣ : « لقد أخذ كاتب كبير ينشر فى المقطم مقالات نفيسة عن حياة القرى وما هى عليه من بؤس سواء من الوجهة المادية أو من الوجهة المعنوية » .

وقالت فى العدد الصادر فى أول نوفمبر سنة ١٩٣٣ : « ان الذين يطالعون مقالات (حياة القرى) التى ينشئها كاتب بليغ من مفكرينا البارعين يجد فيها كثيرا من هذه العادات (أى عادات أهل القرى) التى فرضها العرف على القرويين وصاروا يستثقلونها ولكنهم لا يجرءون على كسر قيودها » .

وجاءتنا رسائل شتى من أنحاء البلاد تحمل ثناء طيبا على هذه المقالات وقد رأينا (للتاريخ) فقط أن نكتفى بنشر

رسالة واحدة منها فى أثناء الكتاب . ولولا أن يقال انه يزكى نفسه بما ينشر من ثناء عليها لاستكثرنا من نشر ما لدينا .

***

ان القرية المصرية التى ولدنا بها وعشنا فيها ما عشنا ينتابها علل أربع أصيلة : هى الظلم ، والفقر ، والمرض ، والجهل .

هذه هى أصول العلل فى القرى ولهذه الأصول فروع تمتد منها الى جميع شئون الحياة فيها .

ولعل القارىء يعجب من ذكر علة الظلم بين علل القرى فى هذه الفترة — وهى لم تجر من قبل على قلم أحد من الذين يتكلمون فى علل الريف — وقد يكون من حق القارىء أن يعجب اذا سمع أن فى القرى ظلما أو جورا ؟ — والبلاد كانت تستمتع بالحياة النيابية ، وتتفيأ ظلال النظم الدستورية ! ولكن ما نقوله انما هو الحق الذى لا مراء فيه — وما شهدنا الا بما علمنا وما اختبرنا .

وهذا الظلم انما يرجع الى نظام الحكم فى البلاد من يوم أن كان يتولاها المماليك ، أو هو أعرق من ذلك ، ثم جاء الترك فاتخذوا الناس عبيدا لهم ، وحسبوهم من طينة غير طينة البشر ، فأنزلوا بهم من العذاب ألوانا ، وصبوا عليهم من الهوان فنونا — وبحسبك أن تعرف أن قاعدتهم التى

وضعوها لحكم البلاد المصرية فى أيامهم كانت « درهم كرباج خير من أقة قانون » .

ولئن كان الله قد أنقذ البلاد من هذا الحكم الظالم ، فقد بقيت منه آثار لا يزال أهل القرى يضجون الى اليوم منها . وهو ما نلفت اليه نظر أولى الأمر فى عهدنا الحاضر .

ولو أنت ذهبت تبحث عن الحرية الشخصية بالقرى - فى الفترة التى كتبنا فيها هذه المقالات لوجدتها غير مكفولة لكثير من أهلها ، ومن يستمتع بشىء منها فانما يكون ذلك بعيدا عن ظل نظام الحكم - ومن غير أن يكون القانون هو الذى صان له حريته . كأن يكون من ذوى الثراء ، أو من أهل العصبية ، أو من أصحاب النفوذ ولو كان من المجرمين ! ولا تسل عن المظالم التى يقترفها كبار المالكين وبخاصة من كان منهم من أسرة محمد على الذى كان الواحد منهم لا يشبع نهمه أن يملك بلدة واحدة أو بلدتين - وانما كان يملك بلادا عدة ويجعل أهلها له خولا وعبيدا فلا يستطيع أحد أن يرفع صوته من ظلامة وقعت عليه منهم لأنهم كانوا محصنين من الحكومة بالحرس والجلاوزة يحرسونهم من الناس ويمكنون لهم من السيطرة والتسلط عليهم .

وان أكثر ما كان يسود البلاد من ظلم مرده الى النظام الادارى الذى وضع كل شىء فى القرية (بيد العمدة) فلا يرجع فى شىء من أمورها الا اليه ، ولا يعتمد فى أمر من أمورها الا عليه ، وبهذه السلطة الواسعة التى خولت له

تراه يتدخل فى كل أمر من أمور القـــرية حتى ليصح أن يطبق عليه المثل المشهور : « فى كل واد أثر من ثعلبة » . واذا كان المثل الفرنساوى يقول : « فتش عن المرأة » — فأولى بنا أن نقول فى القرى « فتش عن العمدة » .

واذا ما تململ أحد من جوره ، أو اشتكى مظلوم مما ينزله به فسرعان ما تحاك له حبائل الشر ، وتنصب له شباك الضر — ومن العجب أن هذا المظلوم لا يجد له من رؤساء هذا العمدة من ينصفه أو يأخذ بيده ، وبذلك يحيق به الوبال من كل جانب . وقد بينا فى كتابنا هــذا بعض ما كان يفعله العمدة فى بلادهم .

— أما الفقر فقد ضرب بجرانه على أهل الريف جميعا حتى لم يفلت منه الا القليـــل ، وان أبلغ كاتب ليعجز عن وصف ما هم فيه — فالبطون خاوية ، والأجسام عارية ، والمساكن كالقبـــور محرجة بساكنيها من حيـــوان وانسان بعضهم مع بعض كما تحرج الصدور . ولهذا الفقر أسباب بيناها فيما كتبنا .

— وأما المرض فان القرى لا تزال — ولن تزال — تئن من وطأته ، وأنكى الأمراض التى تفتك بسكان القرى هى الأمراض المتوطنة المعروفة بالطفيلية فقد ثبت أن المصابين بمرض البلهارسيا وحدها كان يبلغ كما ذكروه فى احصاءاتهم بين ٧٠ و ٨٠ ٪ وأن المصابين بالأنكلستوما يزيد على ٩٠ ٪

اى أن تسعة أعشار المصريين مصابون بمرض البلهارسيا والانكلستوما .

ه قد ابان الدكتور محمد خليل عبد الخالق فى احدى محاضراته عن تأثير الأمراض المتوطنة فى كفاية الجندى المصرى ، فقال : « ان نحوا من ٩٠ ٪ من المقترعين تبدو عدم لياقتهم للخدمة العسكرية ظاهرة للعيان بدون فحص طبى ، اما العشرة فى المائة الباقية الذين يمرون من كشف الهيئة فان ٩١٪ منهم يتضح بالفحص الطبى أنهم مصابون بالأمراض الطفيلية اصابات بسيطة — وان ٤٪ من المقترعين من بين سن الـ ١٩ و ٢١ هم الأفراد الصالحون للخدمة العسكرية من بين شبابنا فى هذه السن ، وتتوفر فيهم الكفاءة الجسمانية والكفاءة البدنية ، وليس تأثير الطفيليات على القوى العقلية بأقل منه على القوى الجسمانية ويتجلى ذلك فى مخاطبة الفلاحين ومشاهدة تصرفاتهم كما يتجلى فى المدارس الالزامية فى الريف (جريدة المقطم ٦/٥/١٩٣٨م »

وعلى ان الحكومات الماضية قد بذلت فى سبيل مكافحة هذه الأمراض جهودا كبيرة فان شأفتها لم تستأصل بعد — ولن تستأصل الا بامتلاخ اسبابها ، والوقاية كما يقولون خير من العلاج .

وثم أمراض أخرى كالرمد — وناهيك به — فانه يذهب بأبصار عشرات الألوف فى كل عام .

واما التعليم فى القرى فانه لا يتعدى التعليم المعروف

(بالالزامى) وهـذا التعليم قد أجمع الناس حتى رجال وزارة المعارف أنفسهم على أنه أخفق وأن كل ما بذل فى سبيله قد ذهب عبثاً .

وهاك ما قاله الأستاذ ابراهيم دسوقى أباظة (باشا) رحمه الله ، وهو أحد الوزراء السابقين ، فى خطبة القاها فى دار جمعية الشبان المسلمين عن : « الحياة الريفية وتحسين حالة الفلاح » :

« والتعليم ولأبدأ بالتعليم وأشكر الله ـ أن جعلنى أتكلم على مسمع من الحكومة ، بل من وزارة المعارف .

فالتعليم بالأرياف متأخر وفى حاجة عظيمة للاصلاح ـ واذا كان العلم هو مقياس الحضارة فى العالم فاننا نخجل كل الخجل من أن تكون نسبة الأمية فينا ٩٠ ٪ . وسبيل النهضة لتغيير هذه النسبة هو تغيير مناهج التعليم الالزامى ، بل نظامه ـ اى نظام هذا التعليم يجعله بطيئا غير مثمر بل مضراً » . (المقطم ١٩٣٨/٣/٢٩ م) » .

ولا نطيل فى بيان أحوال القرى فى الفترة التى كتبنا فيها مقالاتنا فقد فصلنا القول عنها فى هذه المقالات التى سوينا منها هذا الكتاب الذى نقدمه اليوم الى القراء .

على أنه لا يفوتنا أن ننوه بأمر عظيم ـ لم يلتفت اليه أحد ممن كتبوا فى اصلاح القرى على كثرتهم ـ وكذلك أغفلته كل الحكومات الماضية اغفالا تاما فلم تجعله من عنايتها على حين كان يجب عليها أن تلزه فى قرن هو

والاصلاح الصحى وتجعلهما فى درجة واحدة من العناية والاهتمام ـ ذلك هو العمل على تنظيف عقول القرويين ومداواة أفكارهم ، وتطهير عقائدهم ، واصلاح عاداتهم ، وانقاذهم من بلايا خرافاتهم وأوهامهم .

فلقد أهملت الحكومات السابقة هذه الناحية الخطيرة وكأنها حسبته انها أمر هين لا يستحق أن يهتم به أو يلتفت اليه وتركت هذه الخرافات والأوهام تفتك بعقول البسطاء المساكين ، وتستأكل أموالهم ، بل وتهتك أعراضهم والخرافات كلما يقول حكيم الشرق السيد جمال الدين الأفغانى : « تقف بالعقل عن الحركة الفكرية ، وتدعوه بعد ذلك أن يحمل المثل على مثله فيسهل عليه قبول كل وهم وتصديق كل ظن ، وهذا مما يوجب بعده عن الكمال ، ويضرب له دون الحقائق ستاراً لا يخرق ـ وان عقيدة وهمية لو تدنس بها العقل لقامت حجابا كثيفا يحول بينه وبين حقيقة الواقع ويمنعه من كشف نفس الأمر » .

* * *

وانى اذ أنشر هذه المقالات اليوم مجموعة فى كتاب بعد أن نشرتها من قبل فى الصحف فانى أرمى من وراء ذلك الى غرضين :

أولهما : أن أضع أمام أنظار هذا الجيل مرآة صادقة يرون فيها صورة صحيحة لما كانت عليه القرى المصرية منذ

ثلث قرن لكى يوازنوا بين حالها اليوم وحالها فى عهود الحكومات التى قبضت على زمام أمورها قبل قيام الثورة ، وهذا للتاريخ .

ثانيهما : أن يقف رجال الاصلاح فى زماننا هذا على ما كانت عليه القرى من قبل حتى يعملوا على اصلاح ما تحتاج اليه فى جميع نواحيها الاجتماعية والصحية والعلمية وغيرها .

على أنه لا يفوتنى أن أذكر هنا أن حكومة الثورة قد اتجهت الى اصلاح القرية فى مختلف نواحيها فأخذت توزع على الأهالين الأرض التى استصلحتها والتى استخلصتها من كبار المسالكين ، وتنشىء المستشفيات وتعد لهم الماء الصالح الذى يشربونه وتستزيد من معاهد العلم .

وان البشائر لتدل على أن القرية المصرية ستنال فى عهد الثورة كل ما تحتاج اليه من اصلاح وما تصبو اليه من تقدم حتى تصبح فى مقدمة بلاد العالم سعادة ورخاء وتقدما ان شاء الله .

حقا أن البشائر لتدلنا على ذلك وبخاصة فان الميثاق لم يدعها بغير أن يخصها بعنايته فقد قال :

« ان وصول القرية الى المستوى الحضارى ضرورة أساسية من ضرورات التنمية » .

حقق الله الآمال وأبلغ القرية المصرية الى أحسن حال .

الجيزة فى ١٨ فبراير سنة ١٩٦٤ **محمود أبو ريه**

حياة القرى

أقامت الشرائع السماوية حدوداً للاجتماع البشرى ، وجعلت أول هذه الحدود التساوى بين الناس فلا فضل لأحد على الآخر ، وجاءت بعدها القوانين الوضعية فنصت فى أوائل مبادئها على أن الناس سواء أمام القانون فلا تمييز بينهم ولا تباين .

وعلى أن هذه القضية مسلمة لا يمارى فيها انسان وخصوصا فى هذا العصر ، عصر النور والحرية ، فاننا لو ذهبنا نبحث عن هذا التساوى فى القرى لما وجدنا له أثرا ، اذ لا يزال أهلها يعيشون كما كان يعيش آباؤهم من قبل فى الزمن البعيد طبقات بعضها فوق بعض ، وهذا التفاضل يبدو أثره فى الحقوق وفى المعاملات وفى غير ذلك من سائر شئون الحياة .

ولو شئنا ان نعرف مأتى هذا التفاضل فى حقوق أهل القرى الاجتماعية لوجدناه يرجع الى المال والغنى فعليهما تقوم هذه الحقوق ، فالأغنياء لهم مقام يسمو على الفقراء ، وهم يعتقـــدون فى قرارة نفوسهم أنهم طبقة ممتازة لها السلطان المطلق على هؤلاء الفقراء ، فتسخرهم فى مآربهم وتستخدمهم فى أمورهم ، ونظراتهم اليهم تســمو عليها

نظراتهم الى الأنعام ، فقد تنال هـذه الأنعام من اكرامهم وعطفهم أكثر مما ينال هذا الفقير البائس

واذا أردت أن تلمح شيئا من هذا التباين فى حياة أهل القرى الاجتماعية فاشهد اجتماعا من اجتماعاتهم تجد ذلك ظاهرا فى حفلات العـــرس ! فهذه الطبقة الممتازة تحظى بمظاهر التكريم والحفاوة أكثر مما تنال الطبقة التى دونها ! فتراها تتبوأ من هذه الحفلات صدرها فيكون خالصا لها من دون أهل هذه القرية جميعا بحيث لا يستطيع انسان من غير طبقتها أن يصل اليه أو يدنو منه ، ولا يقف هذا التكريم عند منزلة الجلوس بل يمتد الى الطعام وموائده ، فلكل طائفة طعام خاص بها لا يكون مثل طعام غيرها ! وحرام على أحد من الطبقة الفقيرة ان يستقبل المائدة مع أحد من طائفة الأغنياء !

وما تراه فى حفلات العـــرس تجد مثله حتى فى مآتم الموت ، ذلك المقـام الذى يعنو لرهبته كل جبار ، والذى يستوى فيه الكبير والصغير ، والغنى والفقير .

ولعل القارىء يتولاه الدهش اذا علم أن هذا التفاضل يطغى حتى يصل الى بيوت الله وأماكن العبادة ، اذ يتبوأ الأغنياء مكان الصف الأول فيها ! ومحظـــور على غيرهم الاقتراب من هذا المكان ! أو اقامة الصلاة فيه !

ولو قدر لانسان أن يجلس هنيهة مع أحد أغنياء القرى لمس قلبه شيء كثير من الألم مما يسمعه ويراه من هـذا

الغنى فى معاملة من دونه من أهل بلدته ، اذ لا يجد الا مهانة واذلالا يعيبان الفقير من الغنى .

واذا قام خلاف بين كبير وصغير على شأن من شئون الحياة ووصل هذا الخلاف الى الحاكم وجد الكبير من هذا الحاكم حظوة ورعاية لا ينال الصغير شيء منهما !

اذ بينما ترى الكبير جالسا أثناء تحقيق الأمر بينهما يستمتع برعاية الحاكم وعطفه ـ تجد الصغير واقفا فى ذلة وخشوع تنصب عليه الشتائم وتنهال عليه اللعنات ولا يخرج فى أكثر قضاياه الا مغبوناً مظلوماً !

وقد كنا نظن أننا وقد صرنا فى عصر الحرية والدستور سنجد أهل القرى يخرجون من هذه الحياة المظلمة الى حياة مضيئة فينالهم شيء من الحرية وينعمون بقليل من نعمة المساواة الاجتماعية ولكن الأمر ظل على ما كان عليه من قبل ووقف نور الحرية والدستور عند طائفة لا يعدوها .

وعلى أن كلمات الدستور والحياة الدستورية والحرية وما اليها ! هى أكثر الكلمات دوراناً على الألسنة فى السنين الأخيرة من حياة البلاد ، ومعانيها تشغل كل فكر ، فان أهل القرى ولا غضاضة فى قول الحق ـ لا يعرفون من هذه المعانى شيئا ، وكأن تلك البحوث التى لا يفتأ الكتاب يثيرون غبارها حول الدستور وأحكامه شيء لا يعنيهم ، أو كأنها بحوث فى النور والضوء تلقى أمام عمى لا يبصرون .

وإذا كنا قد أخذنا على انفسنا أن نستعين بقول الحق بغير أن نخشى فى سبيله شيئا فانا نجهر فى صراحة أن أهل القرى لم ينلهم فى أى عصر من العصور قبس من نور الحرية ولا استمتعوا بشىء من نعمة الحياة الدستورية .

ولا تحسبن أيها القارىء الحكيم انا نقرر قولنا هذا بلسان السياسة المتلون فنزعم أن أهل القرى ينعمون بالحرية فى أيام هذا — ممن يتولون الحكم ، ويحرمونها فى عهد ذاك ! وانما يستيقن اننا لا نصدر فى شىء مما نقول الا عن الحق نقرره حتى لا يلعب به ذو هوى ، أو يغطى عليه صاحب غرض .

على أنا نتمنى أن يحين الوقت الذى يعم فيه نور المساواة ويعرف أهل القرى حقوقهم فى الحياة ، فلا يطغى كبير على صغير ، ولا يسخر غنى من فقير حتى يعيش الكل فى ظل العدل ونور الحرية عيشة رغد وسعادة .

المقصود اننا لا نحابى هذه الحكومة فنقول انها عادلة وهى ليست عادلة ، ولا نزدلف الى أخرى نصفها بما ليس فيها .

ضيق القرى

فى القرى المصرية شئون كثيرة تستحق من الكتاب وأرباب الأقلام والمصلحين عناية كبيرة وجهوداً متصلة حتى تنال هذه القرى من الاصلاح ما يجب لها ولا سيما فى عصرنا هذا .

ان من يلقى نظرة على أحوال أهل القرى الاجتماعية والصحية والعلمية والأخلاقية والدينية يجد ما يحزن قلبه وما يؤلم كل محب للاصلاح .

ونحن فى هذا الكتيب لا نحاول أن نعالج كل هذه الشئون لأن ذلك يحتاج الى مجلدات وانما سنتكلم عن شىء منها وان أول شىء نعنى به هو الكلام عن (ضيق القرى بأهلها) .

مما لا يكاد يخفى على أحد أن الأرض الصالحة للزراعة فى بلادنا محدودة المساحات محصية المقادير وهى لا تكاد تزيد وانما تنقص كل عام بما يأكله البناء وغيره منها وسكان القرى يزيدون كل يوم بالتناسل زيادة متصلة فكان من ذلك أن ضاقت الأرض بأهلها ضيقا شديدا حتى أصبح كثير من البلاد فى ضنك أى ضنك . . هذا الى أن الأرض الزراعية قد نقصت غلتها ونفقات العيش زادت عن ذى قبل ــ ولو امتدت

هذه الحال بغير أن تجد من يتولاها بالعلاج لكان فى ذلك من الضرر الاجتماعى الماحق ما فيه .

ولو أن أهل القرى المصرية كانوا كغيرهم من الأمم الأخرى لهاجروا وجاهدوا فى سبيل عيشهم وبذلك كانوا يخرجون من هذا الضيق الذى حاق بهم — ولكن المصرى — كما هو معلوم — قد فطر على الاخلاد الى الأرض التى ولد فيها والسكون اليها مهما ناله من ألوان الهوان ، وما حل به من الذل والفاقة — ولقد بغضت اليه الهجرة الى أية ناحية بغضا شديدا حتى ليبلغ به الخوف من الهجرة أن يأبى الانتقال من بلده الى البلد الذى يجاوره .

هذه هى فطرة الفلاح المصرى جبل عليها من قرون حتى أصبح من العسير عليه أن يغيرها أو ينزل عنها — وعلى أنه يرى فوائد الهجـــرة وخيرها بادية على الذين ينزحون من البلاد الأجنبية الى بلاده ويتبين له ما ينالهم من سعة فى الرزق وبسطة فى المال فان غريزته لم تتبدل ، ونحيزته لم تتحول .

واذا كنا لا نميل بطبيعتنا الى الاسراف فى القول ولا يجنح الى تصوير الأمر بغير لونه الحقيقى فانا نضرب مثلا على ما نقول :

قريتين من قرى بلادنا فنبين مساحة أرضهما وعدد سكانهما — واذا كان ثم بعض فروق فى بعض البلاد فان ذلك لا يغير من النتيجة شيئا .

اما القرية الأولى فعدد سكانها يزيد على ستة آلاف من النفوس ولا يملك أهلها الا نحو سبعمئة فدان !

والقرية الثانية يسكنها مائتا نفس يملكون نحو أربعين فدانا

أما القرى التى لا يملك سكانها من أرضها شيئا وانما هى ملك لفرد واحد أو أسرة واحدة وكل أهلها يعملون مسخرين لمن يملكها فان الحديث فيها يطول .

فماذا يصنع سكان هاتين القريتين وأمثالهم فى معايشهم ؟

لعل القارىء الكريم يود لو يعرف جواب هذا السؤال ؟

وانى ـ وانا الذى أتحدث عن هؤلاء القوم أجيبه عما يسأل اجابة تبين بؤسهم وكيف يعيشون فى الحياة !

انهم يكدون ويكدحون طوال عامهم فى سبيل عيشهم لا فى بلادهم ولا فى البلاد القريبة من بلادهم لأن الأعمال فى هذه البلاد لا تتسع حتى لأيدى أهلها وانما يعملون فيما يعرف بأعمال (الخطرية) فتراهم يتنقلون الى جهات نائية عن بلادهم يعملون فيها طول يومهم ، واذا ما جنهم الليل لا يؤون الى مساكن تقيهم برده وعواديه ، ولكنهم يلجأون الى خيام تضرب لهم ، لا تدفع قسرا ولا تمنع ضرا وتراهم ينامون على الأرض متراكمين كالبهائم اذا احتوتهم زرائبهم ـ وأغلب مواسم هذا العمل فى فصل الشتاء .

أما طعامهم فهو الخبز المصنوع من الأذرة المخلوط بالبامية الجافة المســحوقة ، وليس لهم من أدام الا المش والملح ! ويظلون على ذلك اكثر عامهم ، لا يرجعـون الى بلادهم الا ريثما يهيئون خبزهم الذى يحملونه على ظهورهم الى حيث يعملون .

هذه هى معيشة كثير من أهل القرى ـ ومن عجب أن كثيرا من الناس يعرفون هذه الحال السيئة ولكنهم يصرفون أبصارهم عنها ، لأن الصغير فى هذه الحياة لا يعنى به أحد وليس له أن يتمتع بملاذ الحياة ونعيمها وانما ذلك من حق الكبراء والعظماء ؟ فالأمر كما ترى خطير ويحتاج من أولى الأمر الى عناية كبيرة يوجهونها الى أهل القرى فيفحصون عن حالتهم وكل من يرونه منهم قد ضاقت به الأرض أو كان لا يملك فيها شيئا ـ وعمله فى الزراعة ـ تسهل له سبيل الهجرة الى أرض اخرى واسـعة من التى تملكها الحكومة . سواء أكانت من أرضها القديمة أم من التى أخذت تستصلحها فى السنين الأخيرة على أن تكون فى عملها هذا ما يحبب الى النـاس الهجرة كأن تعطى لهم الأرض بثمن يسير يؤخذ منهم على أقساط سهلة يسيرة ، وأن تمدهم بما يعينهم على حياتهم الجديدة حتى يستقيم أمرهم ويسيروا مطمئنين فى طريقهم .

هذا ما يجب على أولى الأمر عمله ولا غرو فان الحكومة اذا أولت هذا الأمر شيئا من عنايتها تجنى من وراء ذلك

فوائد كبيرة ذلك أنها ستنقذ الذين ضاقت بهم الأرض وهم جزء كبير من سكان البلاد وفى انقاذهم وصلاح حالهم عمل من أجل الأعمال ، والأرض التى سيعمرونها ستخرج فوائدها المخزونة فتفيد الحكومة من هذا العمران فوائد لا تحصى ، ووراء ذلك كله اصلاح لعلة كبيرة تئن البلاد منها ، ولو تركت بغير علاج لآلت الى مشكلة اجتماعية كبيرة قد يستعصى حلها .

ونقفى على ما بيناه هنا بذكر كلمة نشرناها فى صدر جريدة المقطم الصادرة فى ٧ يناير سنة ١٩٢٠ لأن موضوعها يتصل بها وها هى ذى بعنوانها :

أمر يجب تداركه

حضرات الأفاضل أصحاب المقطم . .

يعجبنا من المقطم الأغر عنايته الكبرى بالشئون الاجتماعية والأمور العمرانية افادة الناس فى معايشهم . . وما يهمنا الآن هو أن نكشف للناس أمراً خطيرا قد يكون من اهماله أوصاب جمة تصيب جسم اجتماعنا فتزيده بلاء على بلائه .

ان الذى يلقى نظرة الآن على بلادنا المصرية يجد أن الكثير منها قد ضاق بأهله ضيقا يجب المبادرة الى تلافيه وهذا يرجع الى أسباب كثيرة ، منها زيادة النسل زيادة

لا تنقطع كل يوم ومنها نظامنا الاجتماعى فى توزيع الثروة ومنها العادات المتأصلة فى المصرى من بغضه للهجرة والظعن ، ورضاه بما يناله من رزق ضئيل .

ونحن لا نستطيع أن نعمل على ازالة هذه العلل ، لأن نماء النسل من أسباب العمران ونظام توزيع الثروة أمر لا يمكن تغييره ولا نحن نطالب بتبديله فما الذى يمكننا اذن أن نلجأ اليه ونتخذه سبيلا لحل هذه المشاكل .

حكومتنا المصرية تملك مئات الآلاف من الأفدنة أرضا صالحة للزراعة مثل أراضى الدومين ، وملايين الأفدنة من الأراضى البور التى يمكن استصلاحها ، وقد تواترت الأنباء بأن الحكومة لما رأت ارتفاع أثمان الأراضى الزراعية فى هذه الآونة عزمت على أن تنتهز هذه الفرصة وتتنازل عن أملاكها بالبيع ، فحبذا لو أنها نظرت الى هـذا الأمر نظرا جديا وآثرت عاجل النفع على آجله ونهضت الى تقسيم أملاكها هذه كل عشرة أفدنة قسما مثلا ، وقدرت لكل قسم ثمنا وسطا تأخذه مقسطا على عشر سنوات أو خمس عشرة سنة ثم تعطى لكل عائلة مهاجرة قسما من هذه الأقسام فتكون قد قامت بعمل جليل لامنها يسطره لها التاريخ على صفحاته ، ومن شاء منهم أن يستعين بها لتمده ببعض ما يطلب منه لشئون الزراعة الضرورية فلتجيبه الى ما يطلب .

ان هذا الأمر يتطلب من المفكرين عنـــاية كبيرة لأن

اغفاله يزيد من هذه السيئات التى تضج منها البلاد والتى نرى آثارها كل يوم واقعة من اضطراب حبل الأمن وقتل النفس وارتكاب السرقات وما الى ذلك .

ان البعيد عن القرى ربما يتوهم أن الأمر لا يستلزم كل هذه العناية ولكن المقيم بينهم لايخفى عليه شيء مماتضطرب به البلاد من المشاكل الاقتصادية ولا سيما بؤس من لا ملك له فان أصحاب الأملاك يلزمونهم أن يوقعوا بأختامهم على عقود ايجار بيضاء تاركين لأنفسهم أمر تقديرها فلتتجه الأنظار الى هذه المسألة العظيمة الشأن .

الحياة الصحية

سلف القول ان بالقرى المصرية شئونا تستحق من الكتاب ورجال الصحافة عناية حتى يصلح أمر هذه القرى ويستقيم حالها .

وقد استخرت الله فى أن أبين هنا شيئا من هذه الشئون وأرجو أن ينال ما أكتب شيئا فى نظر أولى الأمر فيعملوا على اصلاح القرى بعد أن طال العهد على اهمالها ، وامتد الزمن على ترك حبلها على غاربها .

وسنجعل كلامنا عن — حياتها الصحية — التى هى أهم شيء فى الوجود ثم نتبعه بفصول أخرى — ان شاء الله — عن سائر الشئون .

ان حياة القرى من الناحية الصحية حياة سيئة يرثى لها حتى ليكاد من يعرفها يقول : ان هذه القرى لا تعيش فى القرن العشرين الذى هو قرن الحضارة والمدنية ، ففى منازلها وفى طرقها وفى موارد مائها تجد ما تألم له النفس ، وتقذى له العين شفقة على هؤلاء الناس ورحمة بهم .

فاذا نظرت الى البيوت لقيتها قائمة على وضع غير صحى فهى مبنية فى الغالب باللبن وتحتوى على حجرات لا منافذ فيها وبين هذه الحجرات تقوم زرائب الماشية تتصاعد منها الرائحة الكريهة ليل نهار على من فى المنزل جميعا لا يصدها شىء — ولا يوجد بهذه المنازل مراحيض لقضاء حاجة من فيها .

واذا أنت سرت فى طرقها ألفيتها ضيقة ملتوية لأن أمرها متروك الى أصحاب البيوت أنفسهم فهم ان شاءوا جعلوها واسعة وان شاءوا انتقصوها فضيقوها ! وأنى لهم أن يوسعوها وهم يتحيفونها بالنقص ما استطاعوا ليوسعوا فى بيوتهم التى تضيق بهم وبمن معهم ! وبذلك تكون الطرق بين البيوت ضيقة ملتوية .

وهذه الحال تدعو ولا ريب لأن تجعل هذه الطرق مباءة للقاذورات التى تتولد منها الميكروبات الضارة !

واذا انصرفت الى خارج القرية رأيت أكوام السماد تحيط بها متلاصقة ، بعضها بجوار بعض وهذه الأكوام

هي مراحيض أهل القرى واليها يحمل روث البهائم من الزرائب .

كل هذا أو غيره تحمله القرى – وثم بلية عظمى ابتليت بها القرى في مائها الذى يشرب منه أهلوها فانك لو شئت أن تعرف ما هو هـذا الماء لبان لك من أمره ما يحزن بل ما يبكى ! ذلك أن هؤلاء القوم يأخذون ماءهم هذا من موارد تختلط بها الأنعام بالأناسي ! فتجد هذه تأخذ ماء ! وهذا يسقى دابة ! وتلك تغسل أثوابا ! وذلك يبول ويتغوط ! وكل ذلك وا أسفا من مكان واحد !

وقد يكون هذا البلاء هينا لو أن هذه الموارد كانت من أنهار جارية ! ولكن البـلاء الأكبر ، والطامة التى تقصم الظهور هو فى الموارد التى تكون من ماء آسن ، قد يعلوه الطحلب أو من قنوات صغيرة .

ومن ماء الشرب هذا وحده جاءت الأمراض الوبيلة المتوطنة التى انتابت أهل القـرى واصـابت مفاصل اجسامهم – ومن أخبث هذه الأمراض البلهارسيا ذلك الداء العضال الذى استمرأ أبدان أهل القرى فنهكها وترك أصحابها صفر الوجوه ضعاف الأجسام خائرى القوى .

وهناك غير ذلك مما يؤذى الصحة ويضرها – مقابر الموتى – فانك تجدها تجاور المساكن بل قد تجـد أكثر القرى يدفنون موتاهم في مقابر تقوم بين بيوتهم .

كل ذلك تجده فى القرى وأكثر منه مما يطول الكلام فيه بغير أن يجد مصلحا له ، أو رحيما يلتفت اليه .

ومن عجب أن تجد هذه الأمور قد أعرقت فى بلادنا فلم نجد أية حكومة من الحكومات قد تداركتها ، أو عملت على اصلاحها وانما همّ كل حكومة أن تعنى بالأمن وحده ، ومتى وصلت الى ما تطمئن اليه منه ، لا تلتفت الى سواه فتجد كل حاكم من أعلى منزلة الى أدنى طبقة لا يسأل عن شيء فى القرى الا عن الأمن ، أما سائر الأحوال فمقصى فى جانب النسيان والاهمال .

لم نجد أحدا عنى بمنزلة القرية فوضع له رسما صحيحا يصلح لحال الزارع ، ولا رأينا الحكومة قد أولت طرق القرى وشوارعها شيئا من عنايتها حتى تكون فسيحة منظمة ، وكذلك لم نسمع أنها حرمت على أهل القرى وضع أكوام السماد حول المساكن وحتمت على كل زارع أن يضع سماده على رأس حقله ، أو أنها أبعدت مقابر الموتى عن القرى ، وألزمت القرويين أن يدفنوا موتاهم فى هذه المقابر البعيدة .

لم نجد شيئا من هذا كله ومن غريب الأمر أن الحكومات كلها لا تفتأ تسعى وتكافح فى تخفيف أمراض سكان القرى فتنشيء لهم المستشفيات وتقيم المصحات ولكنها لا تلقى نظرة واحدة على أصل الداء وهو ما بينا من سوء الحال الصحية فى القرى عامة ومن ماء الشرب خاصة

ذلك البلاء الأكبر الذى لم يترك أحداً الا ناله بأذاه وضرره (والوقاية كما يقولون خير من العلاج) .

وانا وقد أوضحنا ما ينتاب القرى من العلل التى تهد كيانها الصحى لنرجو مخلصين أن يصل صوتنا الى أسماع أولى الأمر فيولوه شيئا من عنايتهم حتى ينقذ هؤلاء القوم مما حاق بهم ، وهم كما لا يخفى سواد الأمة فى عددها وعتادها فى قوتها ، وأيديهم هى العاملة فى زراعتها واخراج كنوز أرضها ، ومنهم الذائدون بسواعدهم عن حوضها .

علم القرية

من يحقق النظر فى حالة أهل القـــرى من الناحية العلمية يجد أنهم لا يزالون جاثمين فيما كانو فيه أيام أن كانوا يتلقون معارفهم فى (كتاب القرية) ويجد أن تقدم العلوم والعرفان قد عم ضياؤه أهل الأرض جميعا لم يصل اليهم لمعة من سناه ولا نالهم شعاع من نوره ، ومع ما أنشىء بينهم من مدارس أولية والزامية فانهم لم ينتفعوا بشىء من المعلومات الضرورية التى لا بد لهم منها لتهديهم فى حياتهم ويتعرفوا بها النافع لهم من الضار بهم .

واذا كانت هذه المدارس لم تنفع أهل القرى فانهـــا كذلك لم تنفع أبناءهم ـ كما بيناه من قبل أيام نشأتها على صفحات المقطم ـ وكل يوم تنهض الأدلة على تأييد ما قلناه ـ والحمد لله .

وقد لا يكون من الغلو ـ وحالة زارعنا المصرى على ما نرى ـ أن نقول انه أقل زراع العالم علماً ومعرفة ان لم يكن فى الساقة منهم جهلا وتأخرا ، فان العارفين يتحدثون عن الزارع الأوروبى وعن معيشته ومعارفه وما الى ذلك مما يبعث فى نفوسنا أشد العجب وذلك من تقدم هؤلاء القوم وتأخرنا ! ويملأها بالألم لسيرهم الى الأمام ونكوصنا

نحن وكيف لا نألم وهم يروون عن الزارع الأوروبى أنه حينما يفيىء الى الظل فى الظهيرة ليستريح من عناء عمله يتناول الصحف يقرأها لكى يعرف أحوال بلاده . بعد أن يفرغ من طعامه وشرابه .

ونحن لا نذكر الزارع الأوروبى لنقابل بينه وبين زارعنا ولا نحاول من وراء ذلك أن نطمع فى أن يكون زارعنا مثله فى العلم والمعرفة وان كان لا عيب علينا اذا طمحت نفوسنا الى ذلك ولكن كنا نود لو أن زارعنا سار وراءه ، ان لم يسايره ، ويتبع خطواته ان لم يزاحمه ، ولكنه والأسفاً لا يزال يهيم فى ظلمات الجهل ويعشو عن رؤية أموره حتى لا يدرى شيئا من حياته العامة بله الزراعية الخاصة اللهم الا ما تلقاه عن والديه وبيئته .. ومن أجل ذلك كان هدفا لكل طامع ، وفريسة لكل محتال لأن جهله يحول بينه وبين معرفة أيسر الأمور فتراه ينخدع لأصحاب الحيل والأغراض ولا يلبث أن يقع فى حبائلهم .

ومن جهل أهل القرى وجد المشعوذون والمنجمون ومدعو الطب ونحوهم من أهل الدجل سبيلا ميسرا لحيلهم ودجلهم يحيكونها لهؤلاء المساكين فيقعون فيها جميعا (وما دام المغفل موجوداً فالمحتال بخير !!) .

ورب قائل يقول : وأين انت من أولئك الذين يتعلمون من أهل القرى ويرجعون الى بلادهم بعد أن ينالوا من العلم نصيباً ؟ وانا لن ادع هذه الفئة بغير أن أجعلها من

حديثى .. لأنها قسم من أهل القــرى الذين أتكلم عن شئونهم .

لو آثرنا الحق فيما نكتب عن هذه الفئة لوجدنا أنها أشد بلاء على بلادها من غيرها ، وأن ضررها أكثر من نفعها ذلك بأن طريقة تعليم هذه الطائفة سواء أكان تعليمها فى كتّاب القرية أم فى المعاهد الدينية أو المدنية — لا يجعل منها فى الحياة رجالا يعتمدون على أنفسهم أو يستطيعون العمل بأيديهم — والحياة الزراعية انما يقوم عملها على الأيدى القوية والسواعد المفتولة — فانهم بعد أن يغادروا القرى التى ولدوا فيها وابتعدوا عنها زمنا طال او قصر لم يلبثوا أن يخرجوا من حكم هــذه البيئة ويتكيفوا بالتى انتقلوا اليها أثناء تعليمهم — فاذا انقلبوا بعد ذلك الى بيئتهم الأولى فانهم ينقلبون وهم على حال غير التى كانوا فيها من قبل فيصبحوا وكأنهم غرباء عنها اذ لا يستطيعون العمل فيها وبذلك يكونون عالة على قومهم ليس لهم من عمــل الا التقلب بين الأزقة والحارات وهذا الفراغ يؤدى بهم الى ابتكار الحيل والسعى بكل الوسائل للحصول على عيشهم ولا تكون هذه الوسائل وتلك الحيل الا ضررا على قومهم ووبالا عليهم .

أما المتعلمون المثقفون — وقليل ما هم — فانهم يقيمون فى القــرى وكأنهم ليسوا من أهلهــا اذ يعيشون عيشة أرستقراطية خاصة ، لا يعنيهم شىء من أمر هؤلاء المساكين

الذين يعيشون حولهم . وهذه الفئة يجب أن لا تظن أنها من أهل القرى أو أنها تغير من أمورها شيئاً .

وان الجهل المخيم على أهل القرى يرديهم ويودى بهم الى أضرار كثيرة تحيق بهم فترى الزارع منهم لا يستطيع أن يتصرف فى غلة أرضه بغير أن يناله غبن كبير — فهو اذا باع قطنه — مثلا — الذى تعب فيه طول عامه لا يدرى ما يذهب منه بين التاجر والقبانى اذ لا يعرف من حسابه شيئا وسنبين ذلك فيما بعد — واذا اقترض من مراب قرضاً لا يعلم ما يزيده هذا المرابى على أصل الدين من الربا الفاحش — والمرابون فى القرى شطار لا يذرون الزراع حتى يستصفوا أموالهم ، ويبتلعوا أملاكهم — واذا ذهب الى السوق ليبيع ماشيته تلقفه سماسرة السوء وما يزالون به حتى يوقعوه بالخديعة فى شباكهم ويذهبوا بكثير من حقه ، واذا ذهب الى المدينة ليبتاع منها حاجة استهزأ به أهلها ولا يبيعون له الا بثمن مرهق — وهكذا . وبالجملة فان جهل الزراع يعود عليهم بأضرار جمة لا نستطيع أن نأتى بالتفصيل عليها لأن ذلك يدعوالى الاطالة فى القول .

هذا هو حال الزارع المصرى ولا ندرى متى ينال حظه من العلم الذى ينفعه فى حياته لأن نظام التعليم فى بلادنا لا يجعلنا نطمئن الى أن هذا المسكين سيخرج من ظلمات جهله الى نور الحياة فيعرف ما له وما عليه .

ومما يؤسف له أن هذه الناحية لم يلتفت اليها أحد كأن هؤلاء القرويين ليس لهم فى الحياة نصيب ! فهل نجد من ينهض الى ايتاء هؤلاء القوم حقهم من العلم الذى يصلح لهم حتى يعرفوا حقيقة الحياة ويكونوا أهلا لأن يعيشوا مع أهل هذا العصر ؟

لعل صوتنا هذا يكون له أثر نافع يعود على هؤلاء القوم بالنفع والخير .

((فقى)) القرية

كل من يحفظ القرآن الكريم فى بلادنا يلقب (بالشيخ) ومن يعمل فى تحفيظه لغيره يلقبونه (بسيدنا الشيخ) أو مولانا وكل من هذا وذاك يعرف (بالفقى) ولهؤلاء (الفقهاء) أعمال فى القرى لا تقف عند تلاوة القرآن الكريم وتحفيظه ، وانما تمتد الى نواحى أخرى قد لا تكون من شأنهم .

ومن العادات المعروفة بالقرى أن أكثر الناس يدعون هؤلاء الفقهاء الى تلاوة ما تيسر من القرآن الكريم فى بيوتهم كل يوم لقاء أجر يؤخذ مما تغله الأرض بعد حصاده فترى كل فقيه يسعى فى صباح كل يوم الى البيوت التى يقرأ فيها ليؤدى ما عليه من التلاوة .

ولو أن عمل هذا (الفقى) يقف عند ذلك ، أو عند تحفيظ القرآن الكريم لقلنا انه عمله يقوم به ويسعى اليه ،

ولكنه يتجاوز ذلك فيدعى أنه يعرف أموراً كثيرة ممايحتاج اليه أهل القرى ـ بغير أن يعلم حقيقتها .

فمن الأمور التى يزعم أنه بها خبير أمر تأويل الأحلام فنرى أهل القرية يهرعون اليه ليكشف لهم عن تأويل ما يرون من أحلام ؟ وهو فى تأويله هذا لا يرجع الى قواعد من العلم معروفة وانما يؤولها بطريق الاجتهاد والاستنباط المبنيين على ما يعرفه من أمور وأحوال المستفتى التى لا يجهلها الفقراء لأنهم بسبب فراغهم وتدخلهم فى أحوال الناس لا يكاد يخفى عليهم أمر من أمور القرية ظاهرا كان أو باطنا ، والقرى لا يغيب شىء من أحوالها وشئونها على أحد من أهلها .

وغير تأويل الأحلام يزعم بعضهم انه يداوى جميع الأمراض التى تنتاب الناس ومن أجل ذلك يسرع اليه كل من أصابه مرض ليشفيه مما نزل به وقبل أن يصف الدواء يطلب من المريض أن يأتيه بشىء مما يلبسه او يتصل بجسمه كالمناديل والطواقى وغيرها ليعرف مرضه ومن أين جاء فيقيس هذا الشىء الذى يسمونه (الأثر)[1]

(١) طريقة قياس الأثر أن يعقد عقدة على طرف المنديل مثلا ويترك بعدها مقدار عشرة سنتيمترات ويعقد أخرى ، ثم يمر بأصبعه على ما تركه بين العقدتين عدة مرات وهو يتمتم ببعض كلمات ، ثم يعيد قياس ما بين العقدتين فان جده قد زاد ـ أى طال ـ بزعمه كان المرض من الله ! وان نقص كان من الأرض ـ أى من الجن ـ وان بقى بغير زيادة ولا نقص فهو مرض عادى ـ ولكل من ذلك دواء عنده من تمائم أو غيرها .

بطريقة معروفة عند هذه الطائفة ، فاذا ما عرف المرض وصف له ما يناسبه من الدواء ، وهو لا يخرج عن حجاب (تميمة) يكتبها ليحملها المريض أو شيء من العقاقير يحرقه أمامه بخورا وله على ذلك أجر يقدره هو .

ولا يقف التطبيب عند هؤلاء الفقهاء على الأناسى وحدهم بل يتسع الى غيرهم من الحيوانات ذلك بأنهم يزعمون أن لهم دراية تامة بعلم البيطرة فيعمد اليهم أهل القرية لمداواة ماشيتهم ودوابهم اذا ما ألم بها ألم ، ودواء الماشية عندهم اما أن يكون تميمة تعلق فى عنق الماشية أو يكون ماء يتلى عليه شيء مما يحفظونه ثم ينثر هذا الماء على ظهر الماشية أو على رأسها ! ؟

وثم جماعة من الفقهاء لا يقف علمهم عندما ذكرنا بل يدّعون أنهم يعرفون علماً لا يعرفه غيرهم يسمونه (علم الروحانى) وهذا العلم على ما يقولون هو الاتصال بأرواح الجن والشياطين والتسلط عليها لتسخيرها فيما يراد عمله .

ويبحث هذا العلم ــ كما يعرفونه فى أمور الحب والبغض وربط الرجال عن اتيان النساء وحلهم وما الى ذلك .

والحب هو العمل بوسائل يعرفونها لاحكام روابط الود بين متنافرين ! (والبغض) أن يعمل على قطع أواصر الحب بين متحابين ! و (الربط) أن يسخر ارواح الشياطين

على الرجل حتى يعجز عن اتيان زوجه (والحل) أن يعود هذا المربوط الى ما كان عليه من قبل . وهذه الأمور لها فى القرى طلاب كثيرون من الرجال والنساء وترى الشبان عندما يقبلون على الزواج يذهبون الى هؤلاء الفقهاء لكى يعملوا لهم (تحويطة) تحفظهم مما يخوفهم به هؤلاء الفقهاء .

ومن أجل ذلك ترى هذه الطائفة التى تدعى علم الروحانى أحسن حالا وأوسع نفوذا من غيرها فى القرى .

هذه أشياء من عمل بعض الفقهاء بالقرى ولو شئنا أن نتوسع فى القول لذكرنا ذرواً مما ينسبونه لأنفسهم فى العلم بأحكام الشريعة الاسلامية وما يفتون به فى قضايا الناس بغير علم ولا هدى ثم لروينا شيئا مما يقصونه على الناس من جهالات ، وما يبثونه فى آذانهم من ترهات ، بله ما يصنعونه اذا مات ميتة فانهم يضعون مصيره الأخروى بين أيديهم ان شاءوا أدخلوه الجنة وان شاءوا قذفوا به فى النار .

ومما لا يقضى المرء منه عجبا أن الفقى الريفى يستنكف أن يقول انه يجهل اى امر كان من العلم وتراه يفتى فى كل شىء بغير ما تحرج أو خشية وهو عدو لكل علم يصادم ما يعرفه وتراه ينعى دائما على العلوم الحديثة ويزدريها وينفر منها ولا يفتأ يقول : ان علمه هو الحق وعلم سواه هو الباطل .

ولو أن أهل القرى كانوا على شيء من العلم يميزون به الحق من الباطل ، والنافع من الضار لما وجد هؤلاء الفقهاء وغيرهم سبيلا يسلكونها بالأعمال الباطلة فى الحياة ولكنهم بسبب تفشى الأمية والجهالة بينهم ، يصدقون كل شيء يقال لهم .

وما نحسب الا أن هذه الفئة ستظل مسيطرة على عقول أهل القرى تستغلها لمآربها ، وتضلها بباطلها حتى يأذن الله ويمحو ضياء العلم ظلمات الجهل .

القرين

مما يقضى به العلم الروحانى أن لكل نفس انسانية قرينا لها من الجن يسكن اليها الفينة بعد الفينة ، ويستولى عليها بين آن وآخر ، وهو لا يكون من نوع من يسكن اليه ويستولى عليه فاذا كانت النفس الانسانية ذكرا ، كان من يسكن اليها من الجن أنثى ، وان كانت انثى كان (قرينها) جنيا ذكرا ، ويلقبون هذا القرين « بالشيخ أو الشيخة » وأسماء هؤلاء القرناء كاسمائنا — ابراهيم وعلى ، وصباح وحسنة الخ ...

وهؤلاء (القرناء) تتفاوت اقدارهم ، ويتباين سلطانهم ، كما يكون ذلك فى جميع الناس ، فمنهم من يكون سلطانه ضئيلا ، ونفوذه قليلا ، ومنهم من يكون سلطانه عظيما ونفوذه كبيرا . وما نظن الا أن النساء اللواتى تقام لهن

حفلات الزار انما يكون قرناؤهن من الذين ليس لهم سلطان كبير ، فان أمرهن هين لا يعدو اقامة هذه الحفلة فمتى أقيمت كان ذلك منهن ما يصبو اليه هؤلاء القرناء .

وتعرف ملابسة هذا القرين الجنى لصاحبه الانسى بأن يصاب هذا الانسى بشىء يكون فى رأى العين كالغشى او الاغماء ويظل وقتا قد يطول وقد يقصر ثم تنجلى الغمرة فيعود الانسى الى حالته الأولى ، وهذه الغمرة لا تنجلى الا باقامة حفلات الزار .

ويقول علماء الروحانى أن اخواننا من الجن يطربون الرقص ويترنمون للضرب على الدف والنفخ فى المزمار ومتى انشرحت من هذا الطرب صدورهم وطابت نفوسهم لما يسمعون من الغناء وما يرون من الرقص ، انصرفوا عمن يلابسونهم .

وترى النساء الماكرات يتخذن من هذا القرين سبيلا الى الوصول الى مآربهن وقضاء حاجات نفوسهن فاذا فركت امرأة زوجها وأبغضته أو كان لها هوى مع غيره ولم تود أن يعلم بما تضمر ، زعمت أن قرينها الجنى لا يحب قرينها الانسى ، واذا رغبت فى أمر وأرادت الوصول اليه وخشيت ان يحول دون ذلك حائل ادعت ان قرينها الجنى هو الذى يطلبه ويرغب فيه ، واذا لم يؤد هذا المطلوب فانه ينقلب غاضباً ، ومتى غضب كانت الطامة الكبرى ،

والداهية العظمى ، اذ تثور المنازعات وتشـــتد اعاصير الخلافات ، وتنقلب سعادة البيت شقاء وسروره بلاء .

وللنساء فى ذلك حيـــل كثيرة لا نستطيع ايراد كل ما نعلم منها مخافة أن يطول بنا سبيل الحديث بيد اننا لا نحرم القارىء الكريم الاطلاع على طرف من ذلك حتى يعرف كيف يبلغ كيد النساء .

اعرف عن امراة فى قرية تجاور قريتنا انها تدعى أن لها قرينا من الجن اسمه (الشيخ ابراهيم) ولها صديق اسمه (الشيخ محمد) فكان كل شىء تعمله هـذه المراة تعزوه الى قرينها (الشيخ ابراهيم) حتى لقد بلغ من امرها انها كانت تحمل هراوة زوجها وتذهب الى زرعه فى الليل لتحرسه وتدع زوجها فى الدار ليستريح من عناء عمله بالنهار ، وتقول للناس ان معها من يحميها من غوائل الليل وهو (الشيخ ابراهيم) ويعلم الله انه ليس معها سوى صاحبها (الشيخ محمد) .

وفى احد الأيام انقلب زوجها الى بيته فى المساء ولما قدمت له العشاء وكان فى هـــذا اليوم قد اشترى ثلاثة أرطال من اللحم ، فنظـر فاذا الذى أمامه لا يزيد على رطل ونصف رطل ! ولما سألها عن مقـــدار اللحم الذى اشتراه ، كان جوابها أن (الشيخ ابراهيم) كان ضيفنا الليلة فأكله ، ولم يأكله فى الحقيقة الا (الشيخ محمد) .

واصبح (الشيخ محمد) هذا له فى كل شيء من رزق البيت، نصيب كبير .

هذا هو شأن القرناء الذين ليس لهم الا سلطان قليل ! أما الذين ينفسح مدى سلطانهم ويتسع أفق نفوذهم ، فهؤلاء متى لابس الواحد منهم انسياً انفتحت على هذا الانسى أبواب المال ودرت عليه أخلاف الرزق وتدفقت على بيته سيول الخيرات اذ يصبح طبيبا نطاسيا يفزع اليه المرضى من كل علة وعالما بالغيب كبيرا ، يرجع اليه كل من يريد أن يحيط بأنباء حاضره ومستقبله ، واذا كان القول يستفيض ويتسع اذا نحن أتينا على وصف ضروب الشعوذة ووسائل الختل الذى يتخذها أولئك الذين يزعمون أن لهم قرناء من الجن يشفون الأمراض ويكشفون أستار الغيب فلا يفوتنا أن نسوق مثلا عن أحدهم ـ وكلهم على غراره ـ واذا شئت المزيد من الوقوف على ما يعملون فاذهب الى أحدهم فى جميع القرى ولا تكاد قرية تخلو من شيخ منهم .

سمعت عن شاب عليه مسحة من جمال يقطن فى احدى قرى الدقهلية ، وقد زعم هذا الشاب أن قرينته من الجن ذات جمال وسلطان وأنها قد هامت به وملأ هواه قلبها ، واسم هذه القرينة (الشيخة حسنة) واستفاض نبأ هذا الشاب وقرينته بين سائر القرى القريبة من بلدته والبعيدة ومن أجل ذلك ترى الناس ـ وأكثرهم من النساء يهرعون

اليه فى كل يوم ليروا هذه الطلعة البهية التى هامت بها هذه الجنية ! ليسـألوه عما يريدون من حاجاتهم ! وله طريقة شيطانية مع الذين يقصدونه ، وذلك أنه لا يدخل عليه فى حجرته التى اتخذها (للعيادة) الا صاحب الحاجة فقط ، ولكى يسوغ عمله هذا يقول : انه لا يصح لانسان أن يطلع على أمور غـيره ، لأن قرينتـه تكشف الأسرار ، وتهتك الأستار .

وحينما تدخل عليه امرأة لا يكون ثالثهما الا الشيطان وانا لندع لفطنة القارىء ما يقع فى هذه الخلوة التى حرمتها شريعتنا ومنعتها عاداتنا .

ولا نكون غالين اذا قلنا ان ما يتدفق على هذا الشاب من أموال أهل القرى ، لا ينال كبار الأطباء من هذه القرى عشر معشاره .

وهكذا تنخر هذه العلل فى عظام أهل القرى بغير ان تجد من يداويها أو يشفيهم منها .

التصوف وأهل الطريق

يسوقنا الكلام عن هؤلاء الذين يلقبون أنفسهم (بالمتصوفة) أو (أهل الطريق) وبسطوا سلطانهم على أهل القرى جميعا — الى أن نذكر ذروا من الحديث عن التصوف فى أصله لا نذهب فيه الى التقصى حتى نصل الى ما قال به بعض الباحثين من انه يرجع الى أصل هندى ، أو أنه مزيج من عناصر كثيرة فيها الهندى والفارسى والمصرى والاغريقى ، لأن استيفاء ذلك يقتضى بحثا طويلا مستقلا لسنا بسبيله هنا .

لا نمضى فى ذلك وانما نتكلم عن نشأته فى الاسلام لأن ذلك هو الذى يتصل بموضوعنا ومتى بلغنا ذلك استطعنا أن نحكم على متصوفة عصرنا فنعرف ان كانوا يسيرون على نهج سلفهم الصالح أو انهم قد اتخذوه سبيلا لنيل مآربهم الشخصية والوصول الى أغراضهم الذاتية .

قال الحكيم ابن خلدون فى مقدمته : « هذا العلم (التصوف) من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة ، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها

العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة ».

وقال معروف الكرخى « التصوف هو الأخذ بالحقائق ، واليأس مما فى أيدى الخلائق » .

وقال سمنون : « أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء » .

وقال الغزالى « انه علم الصديقين والمقربين » .

ولا نسترسل فى ايراد كل ما قيل فى التصوف حتى لا يؤدى بنا ذلك الى الاطالة ، وحسبنا ما ذكرنا .

هذا هو التصوف فى ديننا ، وتلك كانت صفاته وأعماله عند سلفنا ، فاذا نحن آثرنا الصدق فى القول لنرضى الحق والتاريخ جاهرنا من غير أن نخشى لومة لائم بأن أكثر الذين يزعمون اليوم انهم (أهل الطريق) ليس فيهم من صفة تشبه ما كان عليهم أسلافهم من قبل ، لا فى القول ولا فى العمل — وقلنا أن الأمر قد انقلب ، فبعد أن كان التصوف طريق الحق والهداية ، أصبح سبيل الباطل والغواية ، وبعد أن كان عمل الصوفى « العكوف على العبادة والاعراض عن زخرف الدنيا والزهد فيما يقبل عليه الجمهور » صار شغله الانصراف الى ملذات الحياة والجشع فيما يقبل عليه الجمهور ، وبعد أن كان من صفته « الانفراد

عن الخلق فى الخلوة للعبادة بات مظهرا للظهور والتزاحم بالمناكب الحصول على أماكن الرفعة والاستعلاء .

لقد أصبح التصوف وسيلة من وسائل العيش ، ومهنة يتخذها كل عاطل من العمل ليصل بها الى أغراضه الذاتية ، ويبلغ بها الى شهواته النفسية وبشىء يسير لا يجشمه شيئا تراه قد نفذ الى غايته واستحوذ على عقول البسطاء ليسخرها فيما يريد اذ ليس بينه وبين أن يصبح (خليفة) الدراويش الا خطوة سهلة ذلك ان يحصل على (ترخيص) من مشيخة الطرق الصوفية يؤدى عنه رسما مقررا كما يحصل صاحب كل حانوت على ترخيص لادارته .

واذا كنا نعرف انه يشترط فيمن يطلب الترخيص بمهنة أو بعمل ـ أن يكون ذا صفات ومؤهلات تكافىء ما يطلب الترخيص به فان من يطلب الترخيص (بخلافة التصوف) لا يشترط فيه أية صفة حتى ولا القراءة والكتابة وكثيرا ما يكون بينهم المجرمون وارباب السوابق .

ومن يحمل هذا (الترخيص) الذى يسمونه (اجازة) من مشيخة الطرق الصوفية فانه يسرع الى التشكل بالمظاهر العرضية لمهنته فيتقلدها فيلوث عمامة يتخذ لها لونا غير اللون الأبيض المألوف حتى يعـرف على طريقة (خالف تعرف » فتكون سوداء أو حمراء أو صفراء ، فاللون الأسود علامة (الرفاعية) أتباع الشيخ أحمد الرفاعى ، والأحمر

علامة (الأحمدية) أتباع أحمد البدوى ، والأصفر شعار (البرهامية) أتباع ابراهيم الدسوقى [1] .

وقد جعلوا أصول الطرق الصوفية (أربعة) بعدد الملائكة الكبار والخلفاء الراشـــدين ، والمذاهب المشهورة لا يزيدون عليها وهى (الرفاعية والأحمـدية والبرهامية والجيلانية وتحت كل طريقة فروع متعددة بلغت كما يقولون ٣٦٦ طريقة .

وبعد أن يلوث عمامته الملونة يتخذ مسبحة [2] من ذات الحب الغليظ ويرسل لحيته ، ويقص شاربه ، ثم يعمد بعد ذلك الى موضع السجود من جبهته فيجعـــل فيه سمة

---

(١) سأل أحد الدراويش الأذكياء شيخه هذا السؤال : يا سيدنا الشـيخ اذا كان الله واحدا ، والرسول واحدا ، والكتاب واحدا والقبلة واحدة والصلاة واحدة والصوم واحدا ، والزكاة واحدة والحج واحدا فلم هذه الطرق المختلفة والتى لا يمكن حصرها ! ولم هذه الالوان التى يتخذها شيوخ الصوفية لطرائقهم فهذا أحمر وذاك أسود وذاك أصـفر فأجابه الشيخ : يا ابنى مالك ولهذا ! دع الخلق للخالق ! ومن اعترض انطرد . فأبى الدرويش الا أن يتلقى جوابا مقنعا ــ ولما رأى الشيخ اصرار درويشه قال له : أما اذا أصررت على تلقى الجواب الصحيح فهاكه فى جملة صغيرة ولا تنقلها عنى : « انه تغيير شكل لأجل الأكل » .

(٢) هذه السبح التى عناها الشاعر بقوله :

سبح تدار على الأصـــابع خدعة
والقصد منهـا الغش والتـدليس
عرفوا الطريق الى الضلال فأوغلوا
فيـــه ويلهـــن بينهـــم ابليس

يراها الناس وذلك بأن يديم حك هذا الموضع بشىء صلب أو يدق بعض فصوص من الثوم ويضعها فى خرقة ويجعلها عصابة يربط بها جبهته مقدار ليلة أو ليلتين فتترك أثرا فى هـذا الموضع ليدل الناس على أنه من أثر السجود ... وبذلك تتم التشكيلة .

واذا كان (بيوميا) أى من أتباع الشيخ على البيومى أطال شعر رأسه وجعل منه ضفائر تتدلى على منكبيه ملتوية كالأفاعى .

هذه هى مظاهر الصوفية اليوم فى بلادنا وبهذه الوسائل يستحوذ منتحلوها على عقول البسطاء ويكون لهم فيهم مقام عظيم . ولكى ينشب أحدهم أظفاره فى قرية من القرى وتصبح مستعمرة له يتخذ له طائفة منها يستعين بها على قضاء مآربه ينتخب منها أمراء ونقباء كل واحد منهم له مظهر خاص ثم يميز بعد ذلك طريقته (ببيارق) أعلام ودفوف وصنوج (كاسات) وغيرها .

وقد اتبعوا فى السنين الأخيرة طريقة من طرق استهواء العامة ذلك أنهم زادوا من هـذه الوسائل أعلاما يحملها الأطفال فى الحفلات والمواكب استغواء لهم وما أظنهم فعلوا ذلك فى العهد الاخير الا عندما رأوا أن سوق المظاهرات السياسية قد نفقت بين العامة من يوم أن قامت فى بلادنا ثورة سنة ١٩١٩ وان هذه المظاهرات يفرح بها العامة ـ

وما المواكب التى يقوم بها المتصـــوفة الا نوع من أنواع المظاهرات .

وبمثل هذه الوسائل تقام معالم الطريقة ويصبح لها قدم فى القرية ، وويل للقرى من هذه القدم اذ تصير قدم سوء تقضم اليابس وتخضم الرطب .

وقد لا يقف نفوذ هذا الشيخ عند قرية واحدة بل يمتد هذا النفوذ حتى يشمل قرى كثيرة وتصبح هـذه القرى (التزاماً يشبه الالتزام الذى كان معروفا فى زمن المماليك ، بل يمتاز منه لأن مشايخنا عفـا الله عنهم ومتعهم بالحياة لا يؤدون من الضرائب ما كان يؤديه الملتزمون فى ذلك العهد .

بعد أن يستوفى الشيخ كل مظاهر الطريقة ـ كما بينا ـ ينشأ يعمل على الاكثار من المريدين والأتباع ولكى يصل الى ذلك يتخذ حيلا تبلغ به ما يريد فيشيع بين الناس هذه العبارة التى يأثرونها عن مشايخهم وهى (اللى ملوش شيخ فشيخه الشيطان) ومعنى ذلك فى التعبير الصوفى أنه لا بد لكل مسلم ومسلمة أن يتخذ له شيخا من هؤلاء الشيوخ [1] ، فيحسب البسطاء وأهل الغفلة ـ وأكثر أهل القرى كذلك ـ أن من لم يأخذ (عهداً) على الشيخ الصوفى يصير من أتباع الشيطان ! ومن ذا الذى يريد أن يكون من أتباع الشيطان ؟

---

(١) وجدنا بعد ذلك مثل هذا القول فى حاشية الصاوى على شرح الخريدة التى تدرس فى الأزهر .

ولما كان هذا (العهد) لا يكلف آخذه شيئا فى أول الأمر فانك ترى الناس يقبلون على الشيخ ليأخذوا منه العهد — وأخذ العهد أن يضع الشيخ يده الكريمة فى يد المريد وبعد أن يتلو شيئا يحفظه يوصيه ببعض الوصايا وبهذا يصبح آخذ العهد (مريداً) او (درويشا) للشيخ يبسط عليه نفوذه وسلطانه الروحى فلا يشاركه فيه سواه ويكون فى طاعته كما يقولون (المريد بين يدى شيخه كالميت بين يدى الغاسل) .

ولايتعهد الشيخ مريده بعد ذلك بشىء الا ان يأمره بتلاوة اسم من أسماء الله تعالى عددا محدوداً بغير فهم لأن الشيخ نفسه يجهل معناه حتى اذا انتهى من هذا العدد أمره بتلاوة غيره ، وهذا الذين يثابرون على العمل ، أما من وقف عند أخذ العهد فلا يطالبه الشيخ بأى عمل اكتفاء (بالعادة) .

هذا ما يفعله الشيخ لمريده ، أما ان يبصره بما يحتاج اليه من الأمور الشرعية الضرورية كأحكام الطهارة والوضوء والصلاة وما الى ذلك مما يجب على كل مسلم معرفته فهذا ما لا تعنى به مشايخ الطرق ولعلهم يفعلون ذلك لأنهم هم انفسهم لا يفقهونها ولأن هذه الأمور من العلم (الظاهر) أما علمهم الخاص بهم فهو العلم (الباطن) أى الحقيقى و (الحقيقة) كما يقولون غير الشريعة وكذلك

لا يأمرونهم بمعروف ، ولا ينهونهم عن منكر لأن ذلك وغيره من علم الظاهر ..

ومتى استحوذ على نفر من المريدين أقام الأذكار فى بيت أحدهم وكذلك يقيمها فى الحفلات وفى المآتم وعلى قبور الموتى وغير ذلك .

واقامة حلقات الذكر يكون اكثرها فى ليلتى الجمعة والاثنين لانهما – كما يقولون – اكثر الليالى بركة وخيرا . وتسمى (حلقة الذكر – الحضرة – او المحيا) ويسمونها الحضرة لأن أرواح الأقطاب والأولياء تحضرها وتحفها ببركاتها .

ولكى يزداد مقام الشيخ بين الناس علوا – تذيع عنه بطانته كرامات غريبة وأموراً عجيبة مما يأخذ بالباب البسطاء ويستهويهم فيود كل انسان أن يناله لمحة من أسرار الشيخ أو يحفه قبس من نوره وبذلك يزداد الشيخ احتراما وتمتلىء يديه بالعطايا ويصبح له بين الناس شان أى شأن .

ومتى ظهر ان للشيخ (سرا) اقبل عليه الناس لا للتبرك فحسب ولكن يحملون اليه مرضاهم ليداويهم بيده الشريفة وانفاسه الطاهرة ، ومن هذه السبيل ينفذ بعضهم الى الأمور الخفية من النساء فيتصلون بالنساء لمداواة أمراضهن وعلاج عقمهن وقضاء حاجات نفوسهن من التأليف بين قلوبهن وقلوب من يحببن أو العمل على

قطع أسباب الزوجية بينهن وبين أزواجهن وغير ذلك من الأمور التى لا يفرغ النساء منها ولا ننفذ الى بيان ما وراء ذلك وانما نتركه لفطنة القارىء .

ولا يقف نفوذ الشيخ فى القرى عند حد ، فله (التصريف) فى كل شأن من شئونها وقد يمتد هذا التصريف الى ما يكون بين القرويين من القضايا التى بين يدى المحاكم فانه يزعم أن يحول بسره قلب القاضى لكى يحكم لمن يريد ، ومنهم من يزعم أنه يستطيع أن يرفع أمر القضية الى المجلس الأعلى للأولياء الذى ترأسه (صاحبة الشورى السيدة زينب) لكى يحكم فيه .

وسلطان الشيخ على أتباعه منبسط فسيح الرقعة يتناول كل شىء من أنفسهم وأموالهم . ومن آداب المريد أنه لا يدخل على شيخه الا بعد أن يقف هنيهة فى خضوع وخشوع كما يقف (الشافعى) للصلاة فيضع يده على صدره ويقرأ الفاتحة ثم يتقدم الى يده الكريمة فيقبلها بطنا لظهر ولا يجلس الا اذا أذن له وتكون جلسته بين يديه كجلسة المصلى المتشهد ، وهناك آداب أخرى لا بد أن يتبعها المريد وهى مبينة يرجع اليها من أرادها فى كتبها .

هذا هو سلطان الشيخ على نفس الدرويش وشخصه اما سلطانه على ماله فان له فيه نصيبا مفروضا يؤديه اليه فى مواسم الزرع وفى الموالد العامة والخاصة وفى أفراح الشيخ وأتراحه وغير ذلك ويسمى ما يأخذه (بالعادة)

ومن قواعدهم المرعية (العادة تثبت ولو بمرة) .

وشيوخ الطرق يحرصون كل الحرص على سلطانهم ونفوذهم فى القرى وفى سبيل هذا الحرص ينجم التزاحم بينهم ويجر هذا التزاحم الى الشنآن والبغضاء — وعلى أنهم يقولون « وكلهم من رسـول الله ملتمس » فان كل شيخ يدعى أن سره هو الأعظم وطريقته هى الأقوم ويقول : ان المبتدىء عنده كالمنتهى عند غيره ، أما غيره فليس من التصوف فى شىء وطريقته لا تؤدى الى (الوصول) — وقد يشتد الأمر بينهم فيكيد بعضهم لبعض ، ويعتدى بعضهم على بعض ، ويضطر كل فريق من اتباعهم الى أن ينصر شيخه بكل ما يستطيع فتقع المشاحنات وترتكب الجنايات وتقترف الموبقات وتقع القرية كلها فى حرب طاحنة وذلك كله بسبب حرص مشـايخنا على نفوذهم ، وقد كان اليقين أنهم فى البلاد رسل المحبة والوئام ، ودعاة الخير والسلام .

ويظل الشيخ محل اكرام الناس وتعظيمهم طوال حياته فاذا مامات — أستغفر الله — بل اذا (انتقل) هرع كل مريد من أقاصى البلاد وادانيها ليروا كراماته ! وكرامته بعد موته أن (يطير) أى يجرى نعشه على وجه الأرض فمتى رأى الناس ذلك عدوه من الأولياء الواصلين .

من أجل ذلك يحرص أهله وأصفياؤه على ظهور هذه الكرامة التى تثبت شيخهم فى سجل الأولياء الى يوم القيامة

فيعمدون الى طريقة تصل بهم الى هذه الغاية فيتفقون سرا مع جماعة من خواص مريديه ليحملوا نعشه ويوصوهم بأن يسيروا به قليلا ثم يجرون ههنا وههنا ويتدافعون به الى الأمام ثم يرتدون به الى الخلف ويذهبون به الى الحقول فيهرع الناس وراءهم ولا بأس أن يذهب فى سبيل عبثهم هذا من اتلاف الزرع مايذهب ، وفى أثناء ذلك تزغرد النساء وتعلو أصوات الرجال بالتهليل والتكبير ويقضون فى هذا العبث زمنا طويلا لا يكفون عنه الا بعد توسلات الناس الى الشيخ (الميت) بأن يقبل الدفن وكفى ماأتاه من الكرامات .

وبعد دفن جثة الشيخ لا يلبثون أن يقيموا عليها قبة لتزار ومن ثم تقرأ للشيخ الفواتح وتؤدى اليه النذور وتنحر باسمه الذبائح وتعمل له الموالد ويستغاث به فى الملمات ويقصد اليه فى الحاجات ويظل ذلك على وجه الدهر وكيف لا يفعلون ذلك وقد أصبح من أولياء الله الذين لهم ما يشاءون عند ربهم ـ الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

ولا يذهب سر الشيخ كله الى (مقامه) بل تبقى منه بقية ينالها من يتولى المشيخة بعده من أولاده حتى ولو كان طفلا . ومن يتولى بعده يكون أكثر احتراما واعلى مقاما من المشايخ لأنه شيخ ابن شيخ وأبوه فى (التابوت) أى الضريح .

وحسبنا ما قلنا فى متصوفة القرى ولنرجع بعد ذلك

الى ناحية أخرى من حياة القرى ، ولا بأس من أن نختم قولنا فى الصوفية بكلمة نفيسة عثرنا عليها فى بعض كتب التصوف وهى :

« كان التصوف حالا ، فصار كاراً (صنعة) وكان احتسابا ، فصار اكتساباً ، وكان استتاراً فصار اشتهاراً ، وكان اتباعا للسلف ، فصار اتباعا للعلف ، وكان عمارة للصدور ، فصار عمارة للغرور ، وكان تعففا فصار تكلفا ، وكان تخلقاً فصار تملقاً ، وكان تجريداً ، فصار ثريداً » .

ولنعد الى سيرتنا الأولى فى الكلام عن حياة القرى :

(النذور والعادات)

نشر المقطم فيما نشر من أنبائه أنه لما فتح صندوق النذور الذى بجوار قبر السيد أحمد البدوى وجد فيه خمسون ومئة الف جنيه ، وما يقدر ثمنه بثلاثمائة جنيه من الحلى الذهبية ، ووجد فيه كذلك التماسات يرغب فيها أصحابها من السيد البدوى أن ينظرهم الى ميسرة فيما له عليهم من دين !

وقد يمر على هذا النبأ كثير من القراء بغير أن يولوه أية عناية ، واذا وقف عنده قارىء فانما يكون ذلك من باب العجب ان يوجد فى هذا الصندوق مثل هذا المبلغ الكبير من المال والحلى فى تلك الأزمة الحاطمة [1] أما ان أحدا

---

(١) كانت البلاد فى ذلك العام ١٩٣٤ تحت وطأة ازمة طاحنة وكان الناس فيها كانهم فى سنى يوسف .

يمد عينيه الى ما وراء ذلك ويرسل فكره الى مبعث أداء هذه النذور الى الأولياء ، وكيف يجعل الناس من عقائدهم أن أداءها فرض لا مفر منه فهذا ما لا نظن ان يكون !!

ان هذه النذور وأداءها يرجع الى عقيدة عند اهل القرى وأمثالهم تتبوأ من نفوسهم مكان عقيدة الايمان بالله وهذه العقيدة تجعلهم يوقنون أن لله أوليـاء ، وهؤلاء الأولياء ينفعون ويضرون ، فكل من ألم به أمر يحزبه أو شأن يهمه ، أو رغبة يصبو اليها ، أو حاجة يريدها ، لجأ الى ولى ممن يعرفهم وناجاه بأمره ، ولكى يسارع هـذا الوالى الى اجابة ما يرغب يجعل له نذراً معينا يقدمه له عندما يتم له ما يريد ـ اتباعا للمبدأ التجارى : هات وخذ .

وهذه العقيدة قد مكنها من قلوب أهل القرى رجال الصوفية ، وواطأهم على ذلك أكثر شيوخ الدين ، ومن قولهم فى ذلك : ان أولياء الله هم المتصرفون فى الكون ! اليس الله سبحانه قد ذكر فى القرآن أن « لهم ما يشاءون عند ربهم » ثم يؤيدون قولهم بعبارات تدور على ألسنتهم جميعا وكلها فى اثبات الكرامات والمعجزات لهؤلاء الأولياء ، ويسمع الناس من أتباع السيد البدوى أن الله قال فى الحديث القدسى « الملك ملكى وصرفت فيه أحمد » وأتباع الرفاعى ينازعون أتباع السيد البدوى فى هـذا الحديث ويقولون : ان احمد المقصود فى هـذا الحديث هو احمد الرفاعى . ولكن أتباع السـيد البدوى يؤيدون الرأى

بحديث قدسي آخر يخصص التصرف في الملك بالسيد البدوي وهاك نصه[1] :

« اني اخترت من الأنبياء أحمد ومن الأولياء أحمد فأما أحمد الذي اخترته من الأنبياء فهو محمد نبيي ورسولي ، وأما أحمد الذي اخترته من الأولياء فهو أحمد البدوي ، سألني ثلاث مسائل فأعطيته اثنتين ولم أعطه الثالثة ، سألني أن يكون التصريف في ملكي على يديه ، فأعطيته ، وسألني فيمن زار قبره ان أغفر له في اليوم الموعود فأعطيته ، وسألني أن يدخل النار ، فلم أعطه لأنه لو دخلها لتمرغ فيها فتصير حشيشاً أخضر ، وحقا على أن أعذب بها الكفار » .

وسمعت مرة من أحد خلفاء السيد البدوي أن تيار رزق العباد يتدفق من عتبة السيد البدوي ـ ومن أجل ذلك كان السيد البدوي أكثر الأولياء أتباعاً وأملأهم بالنذور يداً ، وله غير النذور أملاك كثيرة موقوفة عليه تدر كل عام عشرات الآلاف من الجنيهات مما جعل شاعر مصر

---

(١) هذا الحديث سمعته بأذني من شيخ يسمى مصطفى الهلالي من بلدة أبو صير من أعمال محافظة الغربية وهو من علماء الدين وقال لي انه تلقاه من شيخه السيد محمد عبد الرحيم صاحب القبة المشهورة ببلدة سيجر بجوار مدينة طنطا ، وقد كان السيد محمد عبد الرحيم هذا يذكر هذا الحديث دائما في دروسه التي كان يلقيها بالجامع الاحمدي وكان من مدرسي هذا المسجد .

الكبير حافظ ابراهيم يرسل فى هـذا الملك صيحته المشهورة فيقول :

أحيـاؤنا لا يرزقـون بدرهم
وبألف ألف ترزق الأمـوات

للسيد البـدوى ملك دخله
خمسون ألفا [1] والحظوظ هبات

وأنا المعذب فى الوجود وليس لى
يا أم دفر [2] ما به أقتـات

من لى بحظ النـائمين بحفـرة
قامت على أرجائهـا الصلوات

يسعى الأنام لها ويجرى حولها
بحر النـذور وتقرأ الآيات

ويقال هذا القطب باب المصطفى [3]
ووسـيلة تقضى بهـا الحاجات

ونرى رجال التصوف جميعا ومن يؤيدهم من شيوخ الدين يخوفون الناس من عدم أداء النذور ، ويقولون ان من يقصر فى أدائها فان صاحبها الولى ينتقم منـه ، اما

---

(١) أصبح هذا الدخل الآن مئات الألوف من الجنيهات فى كل عام .

(٢) أم دفر هى الدنيا كنوها بأم دفر .

(٣) من صفات السيد البدوى انه باب المصطفى ، ولذلك يقولون فى ندائهم له : « يا باب النبى يا سيد » .

بذهاب ماله أو بالقضاء عليه ، أو على أحد أولاده ولهذا يسمون السيد البدوى (العطاب)[1] ، واذا اعترض أحد على هذه الأمور وقال : ان الله لم يأمر بها وأنها تنافى عقيدة الدين الصحيحة هب فى وجهه رجال الطرق وقالوا : الاعتقاد صيغة والاعتراض هيفة ، ومن اعترض انطرد ! وغير ذلك من العبارات التى ادخروها ليأخذوا بها الطريق على كل من يعترضهم .

والنذور على أنواع : فمنها ما يكون مالا ، ومنها مايكون حليا ، ومنها ما يكون أنصبة من الزرع والدواب والماشية ولا يكاد يخلو بيت فى القرى من وجود سائبة من عجول أو خراف ، أو غير ذلك يجعلون فيها نصيبا للولى ويقدرون هذا النصيب بالقيراط ــ وكل شىء فى القرى يقسم بحساب الفدان ــ والفدان ٢٤ قيراطا ، فاذا جعل أحدهم للولى فى ماشيته أو زرعه قيراطين مثلا فمعنى ذلك أن هذا الولى قد أصبح يملك منها $\frac{١}{١٢}$ واذا جعلوا له ثلاثة قراريط فقد صار ثمنها ، وقد يبلغ هذا النصيب ــ النصف ــ وفى بعض الأحايين تكون كل السائبة ملكا للولى .

---

(١) العطاب من ألقاب السيد البدوى ويقصدون بالعطاب انه يعطب ــ أى يقصم ظهر من يغضب عليه ، وله ألقاب غير ذلك كثيرة يرجع اليها فى كتابنا « السيد البدوى » .

ومن النذور قراءة الختمات[1] والموالد ومنها ما يكون من الشمع الأبيض ، وهذا يكون بالدستة والدستة ١٢ شمعة تقدم الى ضريح الولى ليضاء به ويعلم الله من الذى يستضىء به أو ينتفع بثمنه وكذلك يكون النذر لبنا أو بيضا وغير ذلك وهذا يقدم لسادن الضريح (أى خادمه).

ومما يلقنه متصوفة القرى للنساء أن التى تكنس منهن ضريح أحد الأولياء على عدوتها فانه (يتصرف فيها) بالأذى والضر ، ولهذا ترى كثيرا من القرويات يذهبن الى الأضرحة فى أيام الجمع ليكنسنها على أعدائهن ، ومن مناجاتهن للولى : « حيلتك عليها تصرف فيها يا سيدى ! » .

وقد أعرقت هذه المعتقدات فى القرى وامتدت جذورها فى نفوسهم ولا نكون غالين اذا قلنا ان عقيدة القرويين فى أصحاب الأضرحة وسلطانهم العظيم فى التصرف فى الكون تسير مع عقيدة الايمان بالله فى سبيل واحدة بل هى أقوى .

ولو أنك عدت مريضا بالقرى لألفيت حوله من أقاربه وأصحابه من يتضرعون الى الأولياء ليخففوا عن مريضهم ما به ، فنجد هذا ينادى السيد البدوى وذاك يستغيث

---

(١) الختمات فى العرف جمع ختمة وهى قراءة القرآن كله من جماعة من الفقهاء لقاء أجر ولكنهم يقرأون بعض سور منه ويوهمون القروى أنهم قرأوا القرآن كله وختموه ويأخذون أجرهم كاملا ، والقروي بجهله لا يدرى من الأمر شيئا .

بأبى العينين (ابراهيم الدسوقى) وذلك يتوسل بالرفاعى أو بالست الطاهرة أم هاشم (السيدة زينب) وهكذا . وقل أن تسمع من أحدهم من يتضرع الى الله تعالى او يرجع اليه .

وقد بلغ من تغلغل هذه العقيدة فى نفوس أهل القرى واستحواذها عليهم ، انهم لم يشاركوا الأولياء فى أموالهم فحسب وانمـــا شاركوهم كذلك فى أولادهم ـ ولا يجزع القارىء الكريم اذا سمع ذلك ولا يعده غريبا وليستأن حتى أروى له هذه القصة العجيبة :

حدثنى أحد أصدقائى أن فى احدى القرى رجلا شارك السيد البدوى فى ابنة له فساقنى حب المعرفة أن أذهب الى هذا الرجل فى قريته [1] ، لأقف منه على ما سمعت عنه ، ولما سألته عن هذه الشركة وسببها قال :

بعد أن تزوجت رزقت بابنتين ولكنهما توفيتا فنذرت للسيد البدوى ان عاشت الثالثة كان له (نصفها) فعاشت وطال عمرها ، ولما حان زواجها زوجتها وأخذت لها مهراً اثنى عشر جنيها أودعت نصفه صندوق النذور الموجود بضريح السيد البدوى وجهزتها بالنصف الآخر ، وبذلك أصبحت ذمتى بريئة من حق السيد البدوى .

---

(١) وهى بجوار قريتنا واسمها شبراويش من أعمال مركز أجا بمحافظة الدقهلية .

وقد علمت وأنا بهذه القرية أن أهلها ينفقون على موالد السيد البدوى الثلاثة [1] أكثر من الف جنيه فى كل عام وهو مبلغ يكفى لانشاء نقابة زراعية أو ينفق منه على ما يعود على القرية بالخير والاصلاح .

وويل لأهل القرى من هذه العادة فانها أشد وطأة وأكثر بلاء من النذور ، ذلك بأن النذور قد يرجأ أداؤها الى ميسرة بما يتقدم أصحابها من التماسات للأولياء كما روت جريدة المقطم عن الالتماسات التى وجدت فى صندوق النذور الذى فى ضريح السيد البدوى او توكل فلا يؤديها من هى عليهم اذا قيض الله لهم من ينقذهم من أدائها — اذ من قواعدهم — كما أبنا من قبل ، أن العادة تثبت ولو بمرة .

وناهيك بسلطان رجال الصوفية فى القرى وقوتهم اذا ما هجموا على من تستحق عليه العادة فانهم لا يدعونه حتى يؤديها صاغراً أو يحيق به الخراب .

والمعروف أن كل قبة لا بد أن يكون تحتها شيخ ، ولكن لا بد أن يكون لكل قبة (سادن) يتولى أخذ النذور من أصحابها ويوزع البركات عليهم ، وعلى أن هذه السدانة

---

(١) لكل صاحب ضريح مولد فى كل سنة ، أما السيد البدوى فله ثلاثة موالد تقام بطنطا فى كل عام ، الصغير والكبير والرجبية . « انظر تفصيل الكلام عنها فى كتابنا (السيد البدوى) » هذا غير ما يعمل له ولغيره فى كل آن من الموالد فى القرى .

تورث بأخذها الخلف عن السلف كوراثة سدانة الكعبة فى بنى شيبة ، فانه لا بد لمرسوم بها من المجلس الصوفى الأعلى — ولهؤلاء السدنة سلطان كبير على أصحاب الرغبات والحاجات ، وقد يبلغ بهم الأمر أن يمنعوا القادمين لزيارة الأضرحة من دخولها والطواف بأركانها ، ولا يسمحون بفتح أبوابها حتى يرضوا ! ... ورضاهم له غنى .

ونرى كثيراً من الناس يعيشون على النذور والعادات ولا عمل لهم فى الحياة غيرها .

تطهير العقائد — أساس الاصلاح فى البلاد [1]

تتحدث الصحف كل يوم عن ظهور (دجاجلة) بين الناس يأكلون أموالهم ويهتكون أعراضهم ، ويزهقون نفوسهم ثم تجعل الصحف من أخبارهم مادة للكلام ، ثم تسكت عن القول حتى يظهر دجال جديد يتحدثون عنه أياما ، ثم ينطوى الأمر ، وهكذا يسير الحال فى بلادنا ، لا نعالج العلة الا بعد أن يستشرى ضررها ، ويتفاقم بلاؤها .

---

(١) رأينا بعد أن وصلنا الى هذا من الحديث عن أعمال فقهاء القرى وشيوخ الصوفية أن نضيف الى ما كتبناه كلمتين تتصلان بما نحن فى صدده — الأولى نشرناها فى مجلة الفتح بعددها ٥٤٣ الصادر فى ١٩ المحرم سنة ١٣٥٦ هـ (٣ ابريل سنة ١٩٣٧ م) وقد نقلتها عنها مجلة (الشهاب) التى تصدر (بقسطنطينة) فى بلاد الجزائر بجزئها الثالث =

ولو أن أمرنا يجرى فى طريق الاصلاح لكنا نعمل على استئصال شأفة العلة قبل استفحالها ، ونجتث جذورها قبل ظهورها ، والوقاية كما يقولون خير من العلاج ! . ولكن أنى لنا ذلك وهذا هو شأننا فى بلادنا لا نحيد عنه ولا نتحول .

لما كتبت من قبل فى جريدة المقطم الغراء مقالات (حياة القرى) ووصفت فيها أحوال القرى وصفا دقيقا صحيحا بما أعلم علم اليقين عنها وقد بينت فى هذه المقالات أن أكبر العلل التى تضرب فى مفاصل أهل القرى والتى لا تقوم لهم قائمة ما دام سوسها ينخر فى عظامهم ـ انما هم المتصوفة ـ والذين وقع الاصطلاح فى مصر على تسميتهم (فقهاء) .

ذلك بأن هؤلاء الفقهاء ـ وهم الذين يحفظون القرآن

= من المجلد ١٣ الصادر فى ٢ مايو سنة ١٩٣٧ وعلقت عليها بما ستراه فيما بعد .

والثانية نشرت بمجلة الرسالة بعددها (٥٢٧) الصادر فى ٩ أغسطس سنة ١٩٤٣ بعنوان : « تطهير العقائد وتحرير العقول أساس الاصلاح الاجتماعى » . ، وقد دعانا الى كتابة هذه الكلمة ما كانوا قد جعلوه جوائز لمن يبين العلاج الصحيح لعلل القرى وقد اتبعنا فيها سنة الرسول صلوات الله عليه فى اقامة قواعد دين الاسلام ذلك بأنه قد أقام هذه القواعد على أصلين (تطهير العقائد وتحرير العقول) ثم جاء الى الناس بعد ذلك بالفرائض الدينية والأصول التشريعية ليعملوا بها .

الكريم يدعون أنهم أساتذة (علم الروحانى) وان شياطين الجن مسخرون لهم يقضون لهم كل ما يريدونه — واولئك (المتصوفة) يزعمون أن أولياءهم متصرفون فى الكون ينفذون لهم جميع ما يرغبون — والناس جميعا — الا من عصم ربك — يعتقدون فى هؤلاء وهؤلاء عقيدة راسخة موروثة لا يمكن انتزاعها . وعلم الله أننا ما وصفنا هذه العلل الا ليعمل المصلحون منا على شفاء الناس منها — اذا كانوا يريدون الاصلاح حقا ، ذلك بأن كل اصلاح لا يأتى من هذه الناحية فهو عبث وضلال ، ومضيعة للجهود والأموال .

فقد رأينا كثيرا من أنواع العلاج التى اتخذت لاصلاح أهل القرى ومن هذا العلاج ما أخذ عنه جوائز كبيرة فكنا نضحك من هذه الجهود التى تذهب سدى ، فلا تنبت شجرا ، ولا تخرج ثمرا . ذلك بأن كل ما وضعوه من علاج لا يمس أصل الدواء ولا يصل الى الصميم من العلة ، فان اصلاح القرى من الناحية الصحية أو الاقتصادية أو العلمية او الاجتماعية لا يكاد يخفى أمره على أحد ، ولا يحتاج التفكير فيه الى جهود تؤخذ عليها الجوائز ، أو تمنح من أجلها العطايا .

ان أى اصلاح لأهل القرى لا يجدى الا بعد استئصال الداء الدفين الذى يئن منه جسم الاجتماع وهو (فساد العقيدة) نرى بعض الجمعيات التى وقفت نفسها على اصلاح القرية تجعل همها فى أن تخرج القرويين من ظلمة الأمية !

كأن هذه الأميـة هى كل عللهم ، وانهم اذا خـرجوا منها أصبحوا صالحين للحياة ! ولو أن هذا الدواء كان ناجعا لكانت المكاتب الالزامية التى لم تخل منها قرية ـ من اكبر العوامل على اصلاح القرية ! على حين انك ترى الحجج قد ترادفت بأن هذا التعليم لم ينفع القرية بشىء ، وانما نقول بحق ـ وأمور القرى ظاهرة لكل من يبصر ـ ان كل اصلاح يؤتى به الى القرية ولا يبدأ فيه بتنظيف عقولهم ، وتطهير عقائدهم ، وتقويم أفكارهم ، فهو اصلاح عقيم .

ان أحوال القرى كلها من صحية واجتماعية واقتصادية لم يبلغ الى ما بلغت اليه من السوء الا بسبب مرض عقول أهلها وفساد عقيدتهم ـ وما جلب ذلك الا (فقيه القرية ومتصوفها) اللذان هما أساتذتها ، وقد ورث القرويون ذلك عن آبائهم واجدادهم ، حتى أصبح ذلك من عقائدهم التى يستيقنون أن دينهم وايمانهم لا يصلحان الا بها .

ومن أجل ذلك جعلوا أمورهم كلها بين يدى هؤلاء الدجاجلة ، فتراهم اذا أصاب أحدهم مرض ، أو وقعت به غاشية ، أو أراد أن يعمل عملا ، فانه لا يعالج ذلك بما يجب أن يعالج به من اتخاذ الأسباب المعروفة ، واتباع السنن المشروعة وانما يفزع الى هؤلاء الدجاجلة ، فيلتمس منهم أن يشفوا مرضه ، أو يكشفوا عنه غاشيته ، أو يقضوا حاجته ! ومن ثم امتد سلطان هؤلاء الدجاجلة على البسطاء فسلبوا أموالهم ، وهتكوا أعراضهم ، وازهقوا نفوسهم !

ولأن أهل القرى قد دابروا الأسباب الصحيحة ، وجانبوا الوسائل المشروعة ، فقد ساءت كل احوالهم وسقطوا الى هذا الدرك السحيق الذى يراه كل من يعيش معهم ، أو يدرس عن كثب احوالهم .

قد يظن من لا يعرف حياة القرى ان هؤلاء الدجاجلة الذين يفتضح امرهم ببعض ما يقترفون من الأعمال المنكرة التى تنشر فى الصحف ـ انما هم افراد قلائل لا يظهرون الا فى الفلتة والندرة ، ولكن الذين يعرفون هذه الحياة على حقيقتها يعلمون علما ليس بالظن أن فى كل قرية دجالا بل دجاجلة ، وانهم يرتكبون جرائمهم فى رائعة النهار ، ويعملون اعمالهم على اعين النـــاس ! وما لهم يخشون رقيبـــا ، او يخافون احدا ، وهذه الأعمال فى راى القرويين مشروعة ، بل هى ـ كما بينا ـ من علمهم ومعتقداتهم .

ومن عجب ان هـــؤلاء الدجاجلة لا يقـــع فى شـــباكهم البسطاء والجهلاء فحسب وانما تنال شراكهم من اخذوا من العلم حظا ، وذلك لأن طبيعة بلادنا قد جبلت على التصديق بالأوهام ، وفطرت على ايمان بالشعوذة والخرافات حتى لتجد كثيرا من طلاب العلم الذين يذهبون من قراهم الى تلقى العلم فى الأزهر او غيره فيقضون فى طلب العلم سنين طويلة يدرسون فيها الدين من عقائد وعبادات ثم لا يكون لما تعلموه اثر عملى فى عقائدهم وذلك لأن العقائد الخرافية التى ورثوها عن آبائهم قد استحكمت فى عقولهم وعقلت

نفوسهم ، فلا يستطيعون خروجا منها ولا فكاكا عنها ، وقد يجدون من أساتذتهم فى الأزهر بل وفى كتبهم التى يدرسونها ما يؤيد هذه الخرافات ، وما ينمى فيهم هذه المنكات [1] .

ومن اجل ذلك تراهم اذا انقلبوا الى بلادهم لا يعملون على تغيير شىء من عقائد من فيها ، بل يجارونهم فى ضلالهم ويصبحون ولا فرق بين الجاهلين وبينهم — وقد يتخذ دجاجلة القرى من هؤلاء المتعلمين مطايا يركبونها لتحملهم الى أغراضهم — واذا ما سألت، واحدا من هؤلاء الذين تعلموا فى الأزهر أو فى غيره عن سبب سكوته وسر تأييده ومظاهرته لهؤلاء الدجاجلة — اجابك : ان العلم علمان : علم الظاهر ، وعلم الباطن وهؤلاء هم علماء الباطن ، ثم يظهر لك فى خوف ووجل أنه لو اعترضهم ، لا يأمن ضررهم !

من ذلك يتبين أن الأمر ليس أمر تعليم ، ولا ازالة أمية ! وانما هو أمر تصحيح أفكار وتطهير عقائد ، واذا كان تعليم السنين الطويلة لا يفيد ولا ينفع فهل ينفع (فك الخط) الذى نفرح به ونقول : ان أهل القرى قد خرجوا به من أميتهم !

فاذا كنا نريد أن تصلح القرية حقا فلنجعل أول همنا ، وبدء جهادنا ، وأساس اصلاحنا أن نقتلع جذور هذا الفساد

---

(١) يرجع الى كتاب « حاشية الصاوى » على شرح الخريدة الذى تكلمنا عنه من قبل .

من عقول أهلها ونمتلخ عروق الخرافات من أصــولها ، ثم نتخذ بعد ذلك ما نشاء من اصلاح أحوالها ونداوى ما نريد من أمراضها .

ان علينا أن نحطم الأغلال التى تغل عقولهم وأفكارهم ونمزق تلك الحجب الصفيقة التى حبسوا من ورائها ليخرجوا احرار ــ وهم طائعون ــ الى ما فيه خيرهم وصلاحهم .

وان وقاية النــاس مما رسخ فى عقــولهم وران على قلوبهم لبين يدى رجلين لا ثالث لهما : شيخ الأزهر ووزير الحقانية (العدل) أما شيخ الأزهر فعمله أن يكلف الوعاظ وخطباء المساجد أن يجعلوا همهم الأول فى تطهير العقائد والقضاء على الخرافات والمعتقدات الفاسدة ، وأن يجعلوا الكلام فى عادات الاسلام وآدابه ، بعد تصحيح العقــائد وشفاء العقول .

وأما وزير الحقانية (العدل) فالذى عليــه أن يسن قانونا يقضى بالعقاب الصارم على كل من يتخذ لنفسه حرفة يتعيش منها غير الحرف المشروعة والصناعات المعروفة ، بحيث يتناول جزاء هذا القانون من يتخذون مثل هــذه الشعوذات والتدجيلات صناعة لهم ولو لم يظهر ضرر من عملهم حتى يحسم الداء قبــــل وقوعه ، ثم ليجعل من يشتغلون بما يسمونه (علم الروحانى) وعمـــل التمائم والمداواة بالعقاقير ، والذين يتخذون (التصوف) حرفة ــ ممن يقعون تحت طائلة العقاب الصارم .

هذا هو اساس الاصلاح ولا يقوم اصلاح صحيح فى البلاد الا اذا أقيم على هذا الأساس ـ وما أريد الا الاصلاح ما استطعت .

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

وقد علقت مجلة الشهاب الجزائرية على هـذه الكلمة ـ كما ذكرنا ـ بما يأتى :

هذا الذى وصفه الأستاذ فى الأراضى المصرية ، هو الداء الفاشى فى جميع ارض الاسلام ، والدجالون الطرقيون الذين ذكرهم هم علة فساد العقائد وتشويه اسم الاسلام ، وهم حجارة العثـار فى طريق كل داع الى الله بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهدى السلف الصالح عليهم الرحمة والرضوان ـ ولهـذا فكل دعوة للاصلاح تنهض فانها تصطدم بهم فى أول يومها ، ولا تستطيع البلوغ الى غايتها الا بعد ازالتهم من طريقها ـ والجهل بعض العلماء (القاعدين) بهذه الحقيقة لا يفهمون لماذا صرفت الحركة الاصلاحية بالجزائر الى مقاومة الدجل الطرقى جانبا عظيما من مجهودها ، ولو نهضوا للعمل ورفعوا علم الاصلاح لعرفوا مثل ما عرف الأستاذ أبو رية أن « تطهير العقائد أسـاس الاصلاح » .

تطهير العقائد وتحرير العقول [1]
أساس الاصلاح الاجتماعى

انبعث فى السنين الأخيرة بين جوانب البلاد صيحات مختلفة تدعو كلها الى الاصلاح الاجتماعى ، وتسابق من ينشدون الخير لبلادهم ، فرادى وجماعات الى المساهمة فى ذلك الاصلاح .

ولما كان كل فريق قد اتخذ لنفسه مذهبا خاصا لا يشاركه فيه سواه ، ولم يذهب اليه الا بعد درس وتمحيص فان طرق العلاج قد تعددت ومذاهبه قد تفرقت ـ وقد وجد أدعياء الاصلاح بين زحمة هذه الفوضى طرقا ميسرة ليظهروا بين الناس أنفسهم ، وينالوا منهم مآربهم فيقف الواحد منهم على رأس طريق يتخذه لنفسه بعد أن يفتلذ فى جسم الأمة فلذة ليكون (مرشدا) لها أو رئيسا ! وهذا هو كل همه فلا تجد له ولا لمن حوله من عمل بعد ذلك الا دعاوى ينشرونها ، ومزاعم يبثونها .

وهذه الطوائف هى التى تعرف بين الناس باسم الجمعيات (الدينية) وما هى فى الحقيقة الا (فرقا) قد زادت فى تمزيق الأمة وتشتيت شملها بعد أن أصبح صدر البلاد ضيقا حرجا بتلك الفرق التى تعرف (بطرق الصوفية) .

---

(١) العدد ٥٢٧ من مجلة الرسالة الصادر فى ٩ اغسطس سنة ١٩٤٣

وأن قيام هذه (الفرق) المختلفة بيننا ، وما يدب من عقارب الشنآن بينها ، وما اصاب الأمة بوجودها من داء التفرق ومرض التشيع ليعيد الينا ولا جرم عهد (الفرق الاسلامية) التى ذر قرنها فى صدر الاسلام فكانت من أسباب ضعفه وذهاب ريحه .

على انك لو بحثت عن عمل لهذه الفرق المستحدثة لما وجدت الا صيحات عن بعض الذكريات الدينية ترسل بين الناس الفينة بعد الفينة ويحسبون أنها نافعة مجدية وهى لا غناء فيها ولا فائدة منها .

هذا هو عملها ، فلا تراها قد طهرت من أدران الوثنيات ، ولا فكت عن العقول أغلال الخرافات ، ولا أصلحت من الناس ما غشيهم من سيىء العادات ، ولا حسرت عنهم ما غمرهم من امواج المنكرات ! بل انك لو حققت النظر لرأيت عللنا الاجتماعية قد زادت بها واشتدت ، وأمراضنا القومية قد استفاضت بعدها وانتشرت ، حتى لقد اصبح جسم الاجتماع المصرى بهذه الفرق ـ القديم منها والحديث ـ كمثل رجل الحت على جسمه العلل ، واصطلحت عليه الأمراض فسعى لمداواته الطبيب النقريس ، والدعى الجاهل ـ هذا يدس له ما يضره ، وذاك يقدم له ما ينفعه ، ووراء هذا وذاك أولياؤه وأقرباؤه يدخلون عليه من كل باب يحملون اليه من مختلف الهدايا يظنون انه من دوائه ، وما هو فى الحقيقة من بلائه فلا يلبث هذا المسكين ان تشتد عليه

الأدواء ، وأن يصبح فى حال لا يرجى له معها شفاء .

ان مما لا ريب فيه أن جسم الأمة مريض بعلل شتى قد غبرت القرون عليها حتى أعضل أمرها ، ومما لا خلاف فيه كذلك أن لكل داء دواء يستطب به على أن يتولاه العلاج الناجع طبيب نطاسى ، يقوم عليه وحده ، لا يشاركه فى تمريض المريض غيره .

واذا كنا ندعو بكلمتنا هـــذه الى اتباع تلك الطريقة القويمة التى لا ينهض اصلاح الا باتباعها ــ فانا نذكر قومنا بأن لكل اصلاح (اساساً ثابتا) يقوم عليه ، وأساس الاصلاح الاجتماعى بل والدينى فى بلادنا انما يقوم على « تطهير العقائد من دنس الوثنيات وفك العقول من أغلال الأوهام والخرافات » وهذا الأساس لم نفتجره من عندنا ، ولا هو ببدع جديد لنا ، وانما وصفه من قبلنا الأنبياء المرسلون ، والزعماء المصلحون ، وبحسبك أن تعلم أنه لما قام رسول الله صلوات الله عليه بدعوته جعل همه كله فى القضاء على الوثنيات والبدع التى تدسست الى العقائد فأفسدتها ، والأوهام والترهات التى غشيت الأفهام فكبلتها ، وقد جعل ذلك أساس دعوته ، فلم يأت الى الناس بشىء من التكاليف الشرعية ولا أمرهم بأداء فرض من الفروض الدينية ، الا بعد أن خلصت العقائد من اغلالها ونشطت العقول من عقالها ، وأصبحت الأمة كلها على دين واحد من التوحيد الخالص ، وانه صلوات الله عليه لم يفعل ذلك الا لأن التوحيد الخالص هو كما وصفه أستاذنا

الامام محمد عبده رضوان الله عليه « كمال الانسان ، وانه اذا سلمت العقائد من البدع تبعها سـلامة الأعمال من الخلل » .

واذا أنت أرسلت رائد النظر الى تاريخ (لوثر) مصلح أوروبا العظيم لوجدت نور هذه الحقيقة أمامك ساطعا اذ انه بعد أن قام بدعوته وطهر العقائد المسيحية مما كانت قد تلوثت بها دخلت أوروبا فى طور جديد من الاصلاح ظل يؤتى ثمراته حتى أصبحت على ما هى عليه الآن مدنية وحضارة وعزة وقوة وسلطانا ، ولقد قال توماس كارليل وهو يؤرخ للوثر فى كتابه الابطالى « ان على دعوته قد قامت دعائم الدستور الانجليزى والحرية الأمريكية واستقلالها والثورة الفرنسية ونتائجها » .

ان كثيرين ممن يتصدون للاصلاح (الكلامى) يستهينون بأمر البدع والخرافات [1] ، وبعض هؤلاء يجعل من اصلاحه أن تظل هذه العلل تنخر فى عظام الأمة لأنها (بزعمه) مما ينفع الناس ! ولو هو تدبر الأمر بفكر الحكيم لعـلم أنه ما أنهك جسم الأمة ولا قضى على كل فضيلة فيها الا تلك البدع والخرافات . ولقد أصاب حكيم الشرق وموقظه السيد جمال الدين الأفغانى فى قوله : « ان خرافة واحدة قد تقف العقل عن الحركة الفكرية وندعوه بعـد ذلك أن

---

(١) قال جوزيف جوبير الكاتب الفرنسى « الايمان بالخرافات هو الدين الوحيد الذى تطيقه النفوس الوضيعة » .

يحمـل المثل على مثله فيسهل عليـه قبول كل وهم ، وتصديق كل ظن ، وهـذا مما يوجب بعده عن الكمال ويضرب له دون الحقائق ستاراً لا يخرق » .

ولأستاذنا الامام محمد عبده حكمة جليلة يجب على كل مصلح أن يتبعها ويسير على هداها وهى : « ان نجاح هذه الأمة انما يكون بحسن التربية ولا سبيل الى التربية فيها الا باصلاح معتقداتها ، وتصحيح ملكاتها حتى تستقيم بذلك أعمالها وتصلح أحوالها » .

ولشيخه السيد جمال الدين الأفغانى منهج فى اصلاح الاجماع واسعاد الأمم جعل الأمر الأول فيه « صفاء العقول من كدر الخرافات وصدا الأوهام ، فان عقيدة وهمية لو تدنس بها العقل لقامت حجابا كثيفاً يحول بينه وبين حقيقة الواقع ويمنعه من كشف نفس الأمر ، واول ركن بنى عليه الدين الاسلامى ـ صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام فمن أهم أصول العقائد أن الله منفرد بتصريف الأكوان ، متوحد فى خلق الفواعل والأفعال وان من الواجب طرح كل ظن فى انسان او جماد علويا كان او سفليا بأن له فى الكون اثرا بنفع أو ضر ، او اعطاء او منع او اعزاز او اذلال » .

ومن اجل ذلك كان أول عمل قام به هذا السيد الجليل بمصر أن « وجه عنايته لحل عقل الأوهام عن قوائم العقول فنشطت لذلك الباب واستضاءت بصائر » ولقد

كان رضوان الله فى جميع أوقات أجتماعه مع النـــاس « لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل أو يطهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس الى معالى الأمور » .

هذا هو اساس الاصلاح الذى يكون كل ما نبنى عليه قوى الأركان ، متين البناء ، وكل اصلاح يقوم على غير هذا الأساس فانه لا يلبث أن ينقض وينهار .

وانا نرسل اليوم هذه الصيحة من فوق منبر (الرسالة) لكى تبلغ المســـئولين واهل الرأى فى بلاد الشرق كافة ، لينهضوا جميعا فى حزم وقوة وفى غير هوادة أو لين ليضعوا هذا الأساس المتين ثم يقيموا عليه بعـــد ذلك ما يقيمون من اصلاح ، وما يبنون من أعمال .

هذه هى صيحتى التى ابعث بها الى قومى ، وأرجو أن أكون قد بلغت وأن أكون قد ذكرتهم بما فيه الخير للناس ولهم ، والذكرى تنفع المؤمنين ــ ولقـــد بلغت : اللهم فاشـــهد .

نعود بعد ذلك الى الكلام عن (حياة القرى) فنقول :

موسم المولد النبوى

١

يستقبل المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها شهر ربيع الأول من كل عام بشىء كثـير من الجذل والفـرح لا يقابل بمثلهما شهر آخر من شهور السنة القمرية اللهم

الا شــهر رمضان ، ذلك بأنهم قد اتفقــوا على ان النبى صلوات الله عليه قد ولد فيه ، وتراهم يتخذون فى هذا الشهر وسائل كثيرة يظهرون فيها فرحهم بذكرى هــذا المولد النبوى الكريم ويجعلونها دلائل على الاحتفــاء به والتكريم له . ولأهل القرى طرق فى احياء هذه الذكرى غبروا عليها ولا تكاد تختلف فيما بينهم الا فى بعض أشكال قليلة .

يكون الاحتفال بذكرى مولد النبى صلوات الله عليه فى القرى اما عاما يقوم به أهل القرى جميعا واما خاصا ينهض به فرد واحد ، وهذا الاحتفاء لا يعدو طريقتين ، فاما أن يكون فى جمع يطلق عليه اسم (ليلة سلطانى) ، واما فى حفل تتلى فيه قصة المولد من احــد المقرئين — وسنبدا كلامنا عن الطريقة الأولى :

يقوم بهذه الليلة السلطانى — رجال الطرق فى القرية التى تحتفى بالمولد وفى الغالب يدعى اليها طوائف اخرى ممن فى البلاد التى حولها ، ومتى اجتمعت هذه الطرق فى مكان اطلق على هذا المكان اسم (الجمع) ويكون فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع او فى غيره من ايام هذا الشهر وايامه كلها صالحة للاحتفاء بذكرى المولد فيها .

والمكان الذى يجتمع فيه هذا الجمع تقوم فى وسطه خشبة عالية يسمونها (الصارى) يرفع عليها علم الطريقة الغالبة فى البلد الذى يحتفل بالمولد ، واسم هذا العــلم

(البيرق) وخليفة هذه الطريقة هو الذى يتولى دعوة رجال الطرق التى تدعى من قراها .

ويغرز حول هذا الصارى ــ على ابعاد منتظمة خشبات اخرى ليست فى طوله ــ ومن ثم يكون هذا الصارى منها (كالقطب) من الرحى ويصل بين هذه الخشبات والصارى حبال تزين بالأعلام وكذلك يتدلى من الصارى اليها حبال يعلق عليها المصابيح بالليل .

ويبدأ العمل فى هذا الجمع بعد صلاة العصر ، فتقبل طوائف القـــرى من كل حدب تقرع طبـــولها وتنفخ فى مزاميرها ، وتنقر دفوفها وترفرف علمها وهو (البيرق) ثم تأخذ كل طائفة مكانها فى دائرة الصارى حتى اذا التأم جمعهم واستدارت حلقتهم اقاموا الأذكار المعروفة ويتولى حلقة الذكر كلها رجل واحد يسمونه (ماسك الذكر) وهو الذى يقـــوم بتنظيم حركاته وأصـــواته بحيث يكون كل الذاكرين على نظـــام واحد فى الحركة والاهتزاز والتمايل وغير ذلك [1] :

---

(١) يقول المعرى فى ذلك :

ارى جيل التصـــوف شر جيل

فقـــل لهم واهـــون بالحلول

أقال الله حـــين عبـــدتموه

كلوا أكل البهـــائم وارقصوا لى

وعند الغروب ينفض الجمع وتوزع الطوائف على أهل البلد بحسب مقدرتهم ، فيأخذ بيت طائفتين ، ويأخذ بيت آخر طائفة وقد تنقسم الطائفة بين بيتين . وذلك كله حسب عددها وقد يبلغ عدد الطائفة خمسين رجلا .

وعلى أن عدد كل طائفة يكون فى الجمع معلوما فان عددها يكثر عندما تؤوى الى بيت مضيفها بما يتبعها ممن يريدون الأكل والويل لصاحب البيت من هؤلاء الذين يتزاحمون على الطعام الذى هيأه اذ قد لا يكفيهم ما أعده لطائفته .

وبعد صلاة العشاء يعودون الى هذا (الجمع) ليذكروا الله هنيهة ثم ينهض واحد لعمل خاص اسمه (النقيب) وهو أن يذكر أسماء طائفة من الأولياء وبعد أن يذكر اسم الولى يطلب له ولأتباعه الفاتحة أى قراءة سورة الفاتحة وحينما يذكر أحدكبار الأولياء كالبدوى والدسوقى يقدمه بصفات ربانية ونعوت صمدانية ، وفى آخر الليل يتفرق الجمع الى بيوت أهل القرية التى اكلوا فيها ، وفى الضحى يعودون للاستعداد (للموكب) وهو يتألف من هذه الطوائف وما يتبعها فيمشى بعضها وراء بعض بطبولهم ودفوفهم ومزاميرهم ، ووراء هذا الموكب كله يسير خليفة البلد ، وهذا الموضع فى المواكب يحرص عليه كبار الصوفية ويسمونه (العقب) وتراهم يتزاحمون عليه ، بل ويتقاتلون وقد تصل معاركهم الى المحاكم .

وبعد أن ينتهوا من هـــذا الموكب يرجع كل خليفة بطائفته الى البيت الذى قضى فيه ليلة لتنـاول الطعام وليترك فيه أثرا من ماء أو غـيره يتبرك به من فى البيت وجيرانهم وأقاربهم ، ثم يأخذ (المعلوم) ويختلف مقداره فيكون نصف جنيه أو جنيه ليوزع بين الخليفة وأتباعه . وهذا التوزيع لا يراعى فيه التساوى طبعاً وانمـا يأخذ الخليفة نصفه ويقسم النصف الآخـر بين أفراد الطائفة جميعاً .

وكم من منازعات تقوم بسبب هـذا المعلوم اذ يجد بعض الخلفاء أن ما أخذه لا يكفى (أجرا) له ولطائفته على ما قاموا من عمل !!

وللخلفاء طرق غريبة لاستغلال سـذاجة البسطاء فيقولون ان فى هـــذا الموكب أسرارا عجيبة ، وكرامات غريبة فاذا زف به صبى عاش هذا الصبى وطال عمره ، وان سارت فيه عقيم وقرئت لها الفاتحة حملت من فورها ، واذا مشى معه مريض شفى من مرضه ، وهلم جرا .

وكل ذلك له ثمن (معلوم) يتقاضاه الشيخ ، وينفض المولد على ذلك بغير أن يعرف أحد شيئا عن تاريخ النبى ، ولا تنور قبساً من ذكراه ، ولا وقف على لمحة من أخلاقه وأعماله (صلوات الله عليه) .

أما الطريقـة الثانية فى احيـاء ذكرى المولد النبوى الشريف فها هى ذى :

٢

الطريقة الثانية للاحتفاء بذكرى مولد النبى صلى الله عليه وسلم فى القرى هو أن يقام له حفل يضرب له سرادق أو خيمة فى اظهر مكان بالقرية ويزين بالأعلام الملونة وتصف فيه المقاعد والأرائك ، ويقوم ذلك كله بعد أن يتفق مع الذين جعلوا صناعتهم قراءة قصة المولد الكريم على الموعد الذى يحضرون فيه من بلادهم .

وفى اليوم الذى يحدد لاحياء ذكرى المولد من قارىء القصة النبوية ، لأن فى شهر ربيع الأول تكثر دعوة الناس لهؤلاء القراء ، ومن أجل ذلك تراهم هم الذين يحددون موعد اقامة المولد — فى مساء هذا اليوم يجتمع الناس فى السرادق الذى يقام لهذه الذكرى لكى يسمعوا القصة وأكثرهم يسعون الى هذا الحفل لامتاع نفوسهم بسماع صوت القارىء وغنائه .

ولا يقبل هذا القارىء الى مكان الحفل الا بعد أن يتولى صدر من الليل وبعد أن تذهب اليه الرسل تترى يدعونه ويرجونه وهو يتأبى ، وقبل حضوره يبعث ببطانته الذين معه ولا يقل عددهم عن ثلاثة مشايخ وقد يبلغون خمسة ، فيصعدون الى المنصة التى تعد لهم وهى تعلو عن المقاعد بمقدار متر ونصف — وكأنما المقرىء يؤخر حضوره ليجعل

الذين يرتقبونه يزدادون شوقا اليه واقبالا عليه لأن بطانته حينما تستوى على المنصة ولا يوجد بينها شيخها يتلهف الناس لحضور الشيخ . ويأتى صاحبنا متثاقلا فترنو الأنظار اليه ولا يأخذ فى عمله الا اذا شرب القهوة وجىء له بشىء من (سكر النبات) ليمتصه أثناء عمله ويقولون ان ذلك ينفع فى تليين صوته واكسابه شيئا من الرخامة ، وأكثر هؤلاء الشيوخ يزيد على ذلك بأن يدسوا النشوق المسحوق الى مناخرهم ثم يتلقون بمناديلهم المحلاوى منها ما تقذفه .. ولا يبالون أن يرى الناس فى هذا المنظر ما تشمئز منه نفوسهم .

وبعد ذلك يقرأ أحد بطانته بعض آيات من القرآن الكريم ثم يتقدم هو بعد أن يتكلف النحنحة مرارا ويهتز ذات اليمين وذات الشمال فيضع سبابة يده اليسرى فى أذنه ثم يبسط كفه على خده ويتلو هو الآخر بعض آيات من القرآن وبعد ذلك ينهض واقفا ممسكا باحدى يديه عصا وبالأخرى مسبحة يضرب بها على العصا ثم يرسل عينيه الى جوانب الحفل لينظر كل من فيه وينظرونه ثم يأخذ فى الغناء بقصائد غرامية وأدوار غنائية وكلما تغنى ببيت من قصيدة أو مطلع من دور رددت البطانة بيت القصيدة أو مطلع الدور ، وفى غنائه هذا لا يدع لحنا من الحان مشهورى المغنين الا قلده وحاكاه ، وقد يحسن فى هذا التقليد وقد يسىء فيقلد عبد الوهاب وأم كلثوم وغيرهما — وفى

اثناء غنائه يميل يمينا وشمالا ويتقدم الى الامام ويلتوى الى الخلف ، وعندما يفرغ من (الوصلة) يأخذ فى قراءة شىء من قصة المولد النبوى ثم يجلس هنيهة يستريح فيها ويستجم ثم يستأنف غناءه بعد ان يشرب القهوة ويتجه كذلك بقراءة شىء من قصة المولد وهكذا حتى اذا كانت (الوصلة) الأخيرة ذكر نبأ مولده صلوات الله عليه فى عبارة مفاجئة هى « فولدته صلى الله عليه وسلم » وهنا ينهض الناس وقوفاً ليدعوا ربهم وليصلوا على نبيه .

ولا يغيبن عن القارىء الكريم انه لا بد لكل قارىء من قراء قصة المولد (من مطيب) وذلك ليستفز روح الاعجاب عند السامعين حتى ولو كانوا أنفسهم غير معجبين .

وكثيرا ما كنت أشاهد فى مثل هذه الحفلات ان بعض السامعين يقلد فى الاعجاب كما يقلد فى غيره فمتى سمع ان هذا القارىء محسن كان عنده محسنا ، واذا قيل انه غير محسن حكم عليه بانه غير محسن ، واذا سمع من بجواره يقول (آه) وهى علامة الاعجاب لا يلبث ان يقلده فيقول معه (آه) .

ولا ينزل القارىء من على منصته الا بعد ان يختم بآيات من القرآن الكريم يقراها ثم يسبح ايذانا بانتهاء عمله ولكن السامعين لا يدعونه ينزل بل يلحون عليه ان يقرا لهم آيات اخرى من كتاب الله فيتابى ويمتنع ولا يزالون

به حتى يستجيب لهم ثم بعد ذلك ينزل عن منصته وينتهى الجمع وينفض السامر .

والمقرئين كلام يلقونه فى أثناء غنائهم يجعلونه كالأحماض ، وانا نورد هنا على سبيل المثال شيئا مما يقولونه ننقله بنصه كما سمعناه بأذننا :

جلس صلى الله عليه وسلم مع أصحابه ذات يوم وقال لهم : يا أصحابى ، ويا معشر أحبابى « حبب الى من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وقرة عينى فى الصلاة » فقال أبو بكر : وأنا قد حبب الى من الدنيا لأجلك ثلاث : انفاق مالى عليك وكثرة النظر اليك ، والجلوس بين يديك ، وقال عمر : وأنا قد حبب الى من الدنيا لأجلك ثلاث : لسان ذاكر وقلب شاكر ، وجسم على البلاء صابر ، وقال عثمان : وأنا قد حبب الى من الدنيا لأجلك ثلاث : اطعام الطعام وافشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام ، وقال على : وأنا قد حبب الى من الدنيا لأجلك ثلاث : اكرام الضيف والصيام فى الصيف والضرب فى أعدائك بالسيف ، ثم هبط جبريل عليه السلام من السماء وقال : وأنا قد حبب الى يا رسول الله من (الدنيا) لأجلك ثلاث : تبليغ الرسالة وتوصيل الأمانة واكمال الوصاية ، ثم صعد الى السماء وهبط مرة ثانية وفى يده طبق من النور فيه خمس تفاحات مكتوب على الأولى : « هدية من الرب الجبار الى عبده ورسوله (سيدنا) محمد النبى المختار ، ومكتوب على

الثانية : « هدية من الرب الصديق الى عبده وصديق نبيه ابى بكر الصديق » ومكتوب على الثالثة : هدية من منزل الكتاب الى عبده صديق رسوله عمر بن الخطاب ، ومكتوب على الرابعة : هدية من الملك الديان الى عبده وصديق رسوله عثمان بن عفان ، ومكتوب على الخامسة : هدية من الرب الغالب الى عبده وابن عم رسوله على بن أبى طالب .

ولما أراد النبى (ص) أن يأكل تفاحة قالت له : اصبر على يا حبيبى حتى أقول لك عن مصدرى ! فقال لها : من أين جئت يا تفاحة ؟ قالت : جئت من شجرة فى الجنة يسير الراكب تحتها ستين الف عام ...

ولا تسل عما يقابل به هذا الكلام فان الناس يقاطعونه بالتهليل والتكبير وتقوم بينهم ضجةكبرى اعجابا وسرورا .

واذا سأل سائل عما أفاده الناس من ذكرى المولد وصاحبه صلوات الله عليه قلنا لهم فى صراحة : انهم لم يفيدوا شيئا ، وان ما رأوه وسمعوه لم يزد عن غناء يسمع ولهو يستمتع به وخرافات تنشر بين الناس فتنفذ الى العقائد كماينفذ السوس فى الأجسام .

ولقد كنا نود لو أن قراء القصة النبوية يأتون بشىء من أخلاق النبى العظيمة وسيرته الكريمة ويكشفون عن شمائله الرفيعة فى قصة ليتخذ الناس اسوة مما يسمعون — ولكننا — وا أسفا لا نجد منهم الا ما يؤذى نفس كل مسلم صحيح الايمان .

يتلو القارىء القصة المعروفة (بقصـة المناوى) أو غيرها ، وهذه القصص جميعـا تذكر أن مولد النبى قد حضرته آسيا زوج فرعون ومريم ابنة عمران ،وانه قد نزل فى ليلة مولده طيور من السماء مناقيرها من الذهب واجنحتها من اليواقيت ، وهبطت كذلك ملائكة من السماء وبيدها أباريق من فضة ـ وفيها غير ذلك وصف لجميع اعضاء جسم النبى حتى شعره الأسود ووجهه الأبيض وخده الوردى وعينيه الجميلتين حتى انفه واسنانه وعنقه مما هو أشبه بصفات النساء الجميلات .

ومن عجب أن هذا الكلام ومثله يسمعه من يحضر هذه الحفلات وفيهم من تعلم فى الأزهر وغير الأزهر فلا ينكر أحد منهم شيئًا منه بل يقرونهم على ما يقولون .

ومن تكرار ترديد هـذا القول بين أهل القـرى فى احتفالاتهم الدينية تراه يتدسس الى افكارهم وعقائدهم حتى اصبحوا لا يعلمون من امر نبيهم وشمائله واخلاقه الا ما يسمعونه من هؤلاء القصاص ، وما ينقلونه عنهم ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

أفراح الزواج

ما نظن اهل القرى يعنون بشىء عنايتهم بزواج أولادهم ، ولا يسرفون فى شىء اسرافهم فى اقامة حفلات الزواج لهم ، واذا كان كل انسان ينشد السعادة والهناء لأولاده لأنهم فلذات كبده ، ويختلف الناس فى التماس هذه السعادة ، فمنهم من يتطلبها فى النجابة والعلم ومنهم من يريدها فى علو المنصب والسلطان ، ومنهم من يبتغيها فى احراز المال وجمع الثروة وغير ذلك ، فان أهل القرى لا يرون السعادة لأبنائهم الا فى تزويجهم ولا يجدون فرحهم وسرورهم الا فى ان يروا أبناءهم ذوى زوجات !

وهذا أمر معروف تسمعه من أقوالهم ، وتراه فى أعمالهم ، وانك لتجد كلمات الزواج والعرس هى أكثر الكلام دورانا على السنة شباب أهل القرى ، ولو سمعتهم وهم يهنئون بعضهم بعضا فى الأعياد لوجدت هذه الحقيقة ماثلة فان هذه التهنئة لا تخرج عن عبارتين : فان كانت لمتزوج كانت هكذا « كل سنة وانت طيب والسنة الجاية (أى الآتية) على منى » ، أى أن المهنىء يتمنى لمن يهنئه أن يحج بيت الله الحرام ، وان كانت لعَزَب كانت هكذا « كل سنة وانت طيب والسنة دى فى حضنك العروسة » .

أما النساء فليس لهن الا تهنئة واحدة ذلك أن تقول المرأة لصاحبتها أو جارتها أو قريبتها « كل سنة وانت طيبة والسنة دى تكونى فرحانة بعروسة فلان أى ابنها ! وبعريس لفلانة أى ابنتها » . واذا كانت التهنئة لمن ليس لها زوج قيل لها « كل سنة وانت طيبة والسنة دى فى حضنك العريس »[1] ، وحديث النساء جميعا حتى فى المدن بعضهن مع بعض لا يخرج عن زواج أولادهن حتى الأطفال الرضع .

وأهل القرى — فى سبيل زواج أولادهم — يسرفون ما شاء الاسراف ويبذلون كل ما يملكون ولا يبخلون بشىء فى هذا السبيل ولو أن يؤدى ذلك الى خراب بيوتهم وكم من بيوت قد خربت بسبب عرس .

والفلاح المصرى من طبيعته أن لا يعمل حسابا لغد ، ولا يدخر له شيئا ويحسب أن ذلك من تدينه وتوكله على الله ومن كلماته التى لا يفتأ يذكرها — كل يوم له رزق — ويوم بيوم والنصيب على الله — واصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب — وغير ذلك من العبارات التى تلقاها عن شيوخ الدين الجاهلين — وتراه من أجل ذلك يبيع ماشيته التى تعينه فى زراعته ويرهن أو يبيع أرضه التى هى سبب رزقه ومصدره — كل ذلك فى سبيل زواج ولده ، وقد عرف ذلك شطار المرابين فى القرى (وأكثرهم يونانيون)

---

(١) سنزيد هذا الأمر بيانا فى كلامنا عن رمضان والعيد .

فتراهم يسولون لهؤلاء السذج أمر زواج أولادهم ، ويزينون لهم أن (يفرحوا) بأبنائهم ــ وكثيرا ما تبدأ رواية خراب بيوت أهل القرى من زواج ابن . ذلك أن الفلاح حينما يريد أن يزوج ولده لا تكون نفقات هذا الزواج من مال ادخره ولكن يسعى الى أحد شطار المرابين ــ وهم ينبثون فى القرى ــ الذين يهتبلون الفرص لالقاء الشباك لصيد هؤلاء المساكين فيطلب منه أن يقرضه مقدار المهر أول الأمر ثم نفقات اقامة حفلة العرس بعد ذلك فسرعان ما يمده هذا الشاطر بما يطلب بغير تلبث ولا تريث لأن هذا القرض هو الذى سيجر رجله الى الارتكاس فى المهواة التى اعدها له ، ويكتفى فى أول المعاملة بصك يأخذه عليه بعد أن يضم اليه الربا الفاحش وهو لا يقل عن ٢٥ ٪ وقد يبلغ ٣٠ ٪ ، ثم يأتى هذا المرابى فى الميعاد المحدد لسداد الدين ــ وهو فى الغالب شهر اكتوبر لأنه موسم القطن الى الفلاح ليقتضى منه دينه ومن ثم ينقلب، من اللين الى الخشونة ، ومن الابتسام الى العبوس ويصر على اقتضاء دينه كله والا انقلب الى المحاكم ، ومتى عاد الأمر الى المحاكم ولا تكون الا المختلطة كان الخراب الماحق والبلاء الشامل لأن هذه المحاكم من أكبر عوامل خراب البلاد ،والفلاح لا يستطيع أن يؤدى كل دينه دفعة واحدة وهو مثقل بمطالب أخرى مثل ثمن الفول لعلف ماشيته ، والبذرة لزراعة أرضه وغير ذلك فيعتذر له ويطلب منه أن يؤدى شيئا من الدين ، فيظهر

الاباء ولا يزال يساور الفلاح بمكره ويداوره بختله حتى يرضى بدفع قليل من دينه على أن (يدير) أى ينسى سائر الدين الى العام القابل على أن لا يقل حساب الربا عن ٣٠٪ وبعد انقضاء عام أو عامين على هذه المعاملة ينتهى الأمر بأن ينزل الفلاح المسكين عن شيء من ملكه يأخذه هذا المرابى رهنا فى يديه ، ولا يكون القدر المرهون بقيمة الدين فقط ، بل يكون ثمنه أكثر منه أضعافا ، وما يزال ينمى هذا الدين كل عام من هذا الربح الفاحش حتى تتم الرواية بأن يلتهم هذا المرابى ما بيده من الأرض المرهونة ويأخذها غنيمة باردة .

ومن حيل هؤلاء الشطار أن الواحد منهم عندما يدخل بيت أحد الفلاحين ويرى فيه ابنا كبيرا يبادر فيقول للفلاح — أمام زوجه — لم لا تزوج ولدك هذا ؟ ولا تكاد امرأته تسمع ذلك حتى تقول له (قل له يا خواجة) لأنها بطبيعتها تريد أن تفرح بابنها فيعتذر الفلاح بعدم وجود (فلوس) معه . وهنا يسرع الخواجة لادخاله فى شباكه — فيقول له الفلوس موجودة . وهكذا يقع فى الفخ .

ومن عجيب أمر هؤلاء المرابين أنهم بينما يعاملون الفلاح البائس تلك المعاملة القاسية ويشـدون عليه شدا حتى يخنقوه ويذهبوا بكل ماله تراهم يلاطفون القادرين وذوى اليســار ، ويعـاملونهم بالحسنى حتى ليبلغ بهم الأمر فى ملاطفتهم الى أن يطلبوا منهم أن لا يؤدوا ما يكون عليهم من

دين لهم فى موعد ادائه ـ ويظهرون لهم انهم يرغبون فى ان تظل معاملتهم مستمرة معهم حتى يتراكم الدين بالربا المركب ويضعف المدين عن الاداء ، وحينئذ ينقض عليه ـ كما انقض على اخيه الفلاح الصغير من قبل .

كل هذا يجرى بالقرى ـ ومن عجب ان الفلاح البائس لا يشعر بما يصيبه من هذه الكوارث ، ولا يعتبر بما يصيب غيره منها وقد اعرقت فيهم هذه الأمور واصبحت كانها عادة لا بأس من اتباعها ، وطريقا لا بد من سلوكها حتى اضحت مرضا اجتماعيا وبيلا .

ولعلك تعجب أشد العجب اذا عرفت ان لدى القرويات اغنية فى هذا الأمر نفسه يغنينها فى حفلات العرس بنغمة تشابه نغمة الصبا ، ومن هذه الأغنية : (يا خواجة ادى له رايح يعطر) ،ومعناها : يا خواجه اعط له ما يشاء من المال لأنه ذاهب لشراء الجهاز ، والجهاز عند اهل القرى يسمى (العُطر) بضم العين .

ومن شغف اهل القرى بزواج اولادهم ترى اكثرهم يزوج اولاده دون سن المراهقة وقبل ان يبلغوا الحلم .
وليس الحال فى الأكثر الغالب عندهم هو ما تطلب من اجله العروس ، وانما تطلب اذا كانت ذات مال او كانت من اسرة كبيرة العدد لأن العصبيات لا تزال لها سلطان فى القرى .

- ٢ -

لا تحتاج خطبة الزواج فى القرى الى وساطة وليس هناك ــ كما فى المدن (خاطبـة) تسعى بين البيوت تزين العريس لأهل العروس ، وتزين العروس لأهل العريس أو تحمل لهؤلاء وهؤلاء (صور فوتوغرافية) ، وذلك لأن أهل القرى يعرف بعضهم بعضا : فلا تزوير هناك ولاتلفيق ، وأهل العريس هم الذين يمهدون للخطبة مع أهل العروس وفى بعض الأحيان يتدخل (مأذون الشرع) فى عقد هذه الخطبة فيكون مثله بينهم كمثل (الخاطبة) فى المدن ، وتتم الخطبة بذهاب آل العريس وكبار أهل البلد الى منزل العروس ، وبعد ما يشربون القهوة يبدأ حديث الخطبة بقراءة (فاتحة الكتاب العزيز) ، ثم يطلب والد العريس (القرب) من والد العروس ، وبعد أن يتلقى الترحيب يتفق على المهر ويؤدى كما هو معروف ، بأن يدفع الثلثان ويؤخر (الثلث) الى انفصام عروة الزواج اما بموت أو طـلاق ، ولا يزال بعض أهل القرى يجعلون مع المهر شيئا آخر يسمى (العشاء) أى نفقة ما يهيأ من الطعام فى بيت العروس يوم زفافها .

وبعــد تمام الخطبة يقول أهــل القرية ان فلانة (أى العروس) قد قرئت، فاتحتها ، أو شرط شرطهــا ثم يرسل أهل الزوج اليها هدية تربط هذه الخطبة وهى ليست من قبيل (الشبكة ، المعروفة فى المدن ، وانما هى شيء آخــر

كالفاكهة والأرز والسكر ، ولا بد أن يكون معها كسوة ، وأهل القرى لا يعرفون أمر (الدبلة) التى توضع فى أصبعى العريس والعروسة .

ومتى خطبت البنت امتنعت عن التحدث الى عريسها وابتعدت عن مقابلته بعد أن كانت من قبل تسير معه وتتحدث اليه وتعمل بجانبه فى الزراعة والحقل .

وفى ليلة عقد الزواج عندما يفرغ مأذون الشرع من خطبته الطويلة المملة ويربط بين الزوج ووكيل الزوجة تنطلق مقذوفات البارود من أفواه البنادق فى الهواء ، وتنبعث الزغاريد من أفواه النساء فى جوانب البيت ايذانا بتمام العقد ، وللمأذون أمور يتخذها قبل أن يتولى عقد الزواج سنبينها فى محلها (من هذا الكتاب) .

وفى كثير من القرى لا يقيمون حفل الزواج الا بعد أن يأتوا بمن يسمونهم فى القرى (بالشعراء) وهم الذين يتغنون بسيرة أبى زيد الهلالى والزناتى خليفة والزير سالم وغيرهم على الربابة المعروفة .

ولا بد من حياطة العروسين قبل زواجهما وذلك بأن يعمل لكل منهما (تحويطتان) احداهما لدفع حسد الحاسدين ، والأخرى للوقاية من (الربط) الذى تحدثنا عنه من قبل وهو عجز العريس عن اتيان عروسه .

و (التحويطة) تميمة يكتبها علماء الروحانى من أسيادنا فقهاء القرى وأقل ثمن لها جنيه ، ومتى حمل كل

من العروسين هاتين التحويطتين عصما من كل مكروه !
وأمنا شر الحاسدين والساحرين !

وقبل أن تقام حفلة الزواج يستشير والد العريس – أوالذى سيتولى أمر تزويجه – أهل بلده فيمن يأتى به من المغنين لاحياء ليلة الزواج وقد يفعل ذلك مكرها [1] .
وفى الغالب يشيرون عليه باحضار أحد الذين جعلوا صناعتهم قراءة قصة مولد النبى (ص) وهم الذين ذكرنا أمرهم فى كلامنا عن المولد النبوى .

وأكثر حفلات الأعراس ، لا تزال تعمل بالطبل البلدى وأقلها يعمل بالموسيقى ولا يكون ذلك الا لأهل اليسار ، أما الطبقات الفقيرة التى لا تستطيع أن تأتى بالطبل او بالموسيقى فان دراويش الصوفية هم الذين يتولون زفاف العريس بطبولهم ودفوفهم الخ .

والطبل البلدى عادات لا بأس من أن نورد بعضها هنا :

لا تأتى فرقة الطبل الى القرية الا بكتاب من عمدتها أو من أحد كبارها وهى تأتى قبل الموعد المحدد للزواج

---

(١) نذكر بهذه المناسبة أن أحد الأعيان استشار أهل بلده فيمن يأتى به ، ليحيى ليلة زواج ابنه ، فأشار كل واحد منهم بمن يريده ! من مشهورى المغنين فالتفت اليهم مازحا وقال : ماذا عليكم ؟ أنتم تريدون جميعا أن تقولوا طول الليل آه ! وانا اظل وحدى أقول طول عمرى آه !

بيوم لتزف العروس فى الليلة التى تسبق يوم الزواج ثم تزفها مرة اخرى فى النهار .

وقبل أن تدخل جوقة الطبل القرية يقفون على مسافة قليلة منها ، ثم يأخذون فى قرع طبولهم ، ايذانا بحضورهم ، ولا يدخلون القرية الا اذا اتى اليهم احد اقارب العريس ليمنحهم (النقطة) وهى بعض نقود وهم لا يأتون وحدهم بل يحملون معهم أطفالهم وحميرهم ، ذلك بأنهم يتخذون من حفلات الزواج مغانم لهم ولأولادهم وحميرهم !

وزفة العروس الأولى التى تكون فى الليل يسمونها (الجلوة) وهى لفظة عربية صحيحة ــ ولا بد أن تدور الزفة ــ سواء كانت للعروس أو للعريس ــ حول القرية وفى القرى الكبيرة تمر بأكثر حوارى القرية ويمشى أمام الزفة الرجال والشباب والأطفال ــ وخلفها النساء والبنات يغنين ويصفقن ويزغردن .

وفى زفة العصر فى اليوم التالى يزف مع العروس الأطفال من أقارب العريس الذين يراد اختتانهم ولا بد أن يركب كل طفل فرساً أو حصانا ويوضع على رأسه منديل من الحرير يتدلى على وجهه لكى يحجب العيون عن النظر اليه حتى لا تناله عين حاسد ــ وتقف هذه الزفة أمام كل بيت ولا يبرح الطبالة مكانهم حتى يأخذوا من صاحب البيت (النقطة) وهى فى الغالب نصف قرش يأخذها

(مطيب) الفرقة ، وعندما يأخذها يرفع بها يده الى السماء فى فرح ويصيح بهذه العبارة (شوبش يا عم فلان ـ اسم المعطى ـ شوبش وان شاء الله عندك) ، وان كان معطى النقطة من كبار أهل البلد بالغ فى صياحه وكرر العبارة السابقة وزاد عليها هذه العبارة : (شوبش وبالريالات) أى أنه أخذ منه ريالا والحقيقة أنه لم يأخذ منه الا نصف قرش! وانما يتملقه بهذه العبارة ليوطىء له بذلك لأخذ (عادته) فى أيام حصاد القمح أو الذرة !

وقد يقدم صاحب البيت الذى يقفون أمامه (القهوة) لكبار من فى الزفة ، أما أقارب العروس وصديقاتها فيقدمون لها (الشربات) ، ويكون فى زفة العصر الجهاز تحمله الجمال ـ وعادة حب الظهور والمبالغة تعمل فى القرى كما تعمل فى المدن ـ فيضعون الجهاز الذى يكفى لحمله جملان أو ثلاثة على عشرات الجمال ـ وحمل الجهاز فى المدن معروف فان ما تحمله عربتان من عربات الكارو تجده محمولا على عشرات منها !

وفى القرى عادة حميدة متبعة ، ذلك انه عندما يمر الطبل على بيت يكون أهله فى حزن على ميت يسكون عن قرع طبولهم وتسير الزفة أمام هذا البيت صامتة ، وعادة أخرى حميدة هى أن أهل العريس يستأذنون كل من مات لهم ميت فى زمن قريب فى اقامة أفراحهم .

وتكون زفة العريس فى الليل ويلبسونه جبة وقفطانا

وعمامة وهذه الملابس لا بأس من استعارتها واعادتها ، ويمشى مع العريس اثنان من اخوانه يلبسان كما يلبس ، أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ثم تسير خلف العريس امرأة تحمل (موقدا) لا تفتأ طول الزفة تضع على ناره حصوات من الملح ويقولون ان الفرقعـة التى تنبعث من احتراق الملح تدفع عن العريس سـهام أعين الحاسدين ، ويقدم له أصدقاؤه فى أثناء الزفة قطع الحلوى أو لفافات التبغ ، وتسير الزفة كما قلنا حول القرية حتى اذا اقترب العريس من بيته انتزعوه من الزفة وساروا به مهرولين الى حيث عروسه ولا يدخل بيته من بابه وانما يدخل من أحد بيوت جيرانه ، وسطوح القرى متصلة بعضها ببعض ذلك بأنه اذا دخل من باب داره فلا بد أن يتخطى عتبتها ـ وقد يكون تحت هذه العتبة (عمل) من السحر وضعه أحد الذين يبغضونه فيصيبه ما يصيبه .

وعندما يدخل على عروسه تجتمع البنات أمام المكان الذى هما فيه يصفقن ويغنين بأصـوات مرتفعة حتى لا يسمع أحد صراخ العروس عند فض بكارتها .

ومن العادات المتبعة فى القرى أن العريس لا يدخل على عروسه وحده بل تصحبه الماشطة وبعض قريبات العروس والماشطة هى التى ترشد العريس لفض بكارة عروسه ، ولأن هذه العملية تحصـل من غير تخدير فان صراخ العروس يعلو فى داخل الغرفة ولكن يغطى عليه « زياط »

الفتيات بالغناء وغيره من الخارج ، وعندما تنتهى العملية تخرج امرأة من أهل العروس ترفع بين يديها شاشة بيضاء طويلة ملطخة ببقع الدم وهى تزغرد فتتهلل وجوه أهل العروس فرحا ويصيحون بالأغنية المعروفة (بيضت، الشاش يا عروسة) وبعد ذلك يطاف بهذه الشاشة وحولها البنات المغنيات حول القرية لكى يعلم الناس جميعا طهارة العروس وعفافها .

ولقد سألت بعض كبار السن من أهل قريتى عن هذه العادة ولم لم يتركوا العريس وعروسه وشأنهما وما علة هذه الشاشة ؟ ؟

فقال : ان لذلك سببا اجتماعيا قديما ، ذلك أن البنات كن يذهبن مع الرجال أيام السخرة فى زمن محمد على واسماعيل وغيرهما الى بلاد نائية فيذهب أهل الدقهلية الى البحيرة مثلا ويشتركن معهم فى العمل بالنهار ثم يقضين الليل مع الرجال فى مكان واحد لا ينعزل فيه الاناث عن الذكور ، فلكى تمتلخ عروق الشبهة عن البنات اضطروا لاتباع هذه العادة .

مأذون الشرع

يطلق اسم (مأذون الشرع) على الرجل الذى تعهد اليه الحكومة أن يربط عقدة الزواج وحلها بين المسلمين وعلى أن عمله فى القرية دينيا فانه لا يكون فى الغالب على شىء من فقـه الدين واحكامه اذ يكفى أن يؤدى امتحانا يسيرا فى بعض أحكام الزواج ومن ينجـح فيه أقامته الحكومة مأذونا للشرع الاسلامى لا تجرى عقود الزواج الا على يديه ، ولا تنفصم عقدة النكاح الا بوساطته ، وقد يكون بين هؤلاء المأذونين من يحمـل الشهادة المعـروفة بالعالمية الرسمية ، ولكن لا يكون ذلك الا فى الفلتة والندرة ! وكأنهم جعلوا اسمه على وزن (مأمور) الذى جعلوه حاكما اداريا على عشرات من القرى تجمع فى (مركز) .

وهذا المأذون لا يقف عندما عهد اليه ، بل يتدخل فى كل شىء فى القرية دينيا كان أو غير دينى ، وما دام يرى فى نفسـه أنه رجل الدين وصاحب الفتوى فله أن ينفذ من ذلك الى كل ما يريد والدين والسياسة يتخذهما من يشاء سبيلا الى المغامرة فى كل شىء واقتحام كل أمر ولا سيما عند الطبقات الجاهليـة ـ وأغلب القرويين ـ كما نعـلم جهلاء لا يعلمون ، وبسطاء لا يدركون الا قليلا ممن عصم

ربك ــ وقد جعلت الحكومة له أن يجبى رسما على عقــود الزواج وحددت له هذا الرسم فجعلته قرشا على كل مائة قرش من المهر ، يزيد على ذلك ثمن ورقتى العقد ومقداره قرشان .

هذا كل ما طلب منه أن يأخذوه من الرسم ، فهل تراه يتبع ما أمرت الحكومة به ، ويجبى هذا الرسم وحده ؟

عندما يريد أحد القرويين أن يأتى به ليعقد له ، يمتنع عليه ويتأبى ويراوغه حتى يؤدى اليه ما يريد على حساب الرسم ، ولا يتورع عن المبالغة فى تقدير الرسم الذى تأخذه الحكومة ولا يخاف ــ فيزعم أن الحكومة تأخذ عن كل جنيه خمسة قروش ! هذا غير ما آخذه أنا ! ثم عليك أن تؤدى غير ذلك ــ نفقة السفر بالسـيارة أو بالقطار الى مكان المحكمة الشرعية لأودع هذا الرسم خزينتها ، وقد يكون طالب الزواج فقيرا معدما ، فيتوسل ويسـتغيث ولكن لا مغيث اذ يجد قلبا كأنه قد من الصخر ، ويا ليت حضرة المأذون يقف فى أخذ الرسم عند حد (الخمسة فى كل مائة) بل يقول لطالب الزواج اذا كان من سيتزوج بها بكرا : أين شهادة الميـلاد حتى نعلم ان كانت سنها قد بلغت الحد القانونى أم لا ، وفى القرى لا يعنون بشهادة الميلاد وحلاقو الصحة فى القرى المكلفين بذلك لا يخرجونها ولا يعنون بها .

واستخراج هذه الشهادات يبهظهم بالنفقات الكثيرة وذلك لبعد الشقة عليهم اذ أنها لا تخرج من سجل مواليد

القرية بل تخرج من السجل المحفوظ بعاصمة المديرية وأنى للفلاح الساذج ــ الذهاب الى عاصمة المديرية ؟ ــ ويتم الأمر بأن يتناول المأذون نفقة اخراج شهادة الميلاد وهو الذى يقدر هذه النفقة ــ أو يحصل على ما يطلبه الطبيب لقاء استخراج شهادة بأن هذه البكر قد بلغت السن القانونية ، وهى السادسة عشرة ، ولمأذونى الشرع فى القرية اتفاق مع بعض الأطباء على اعطاء شهادات لهم على أجر معلوم بينهم وقد لا يرى الطبيب وجه العروس ، وقد تكون فى سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة فيجعلها الطبيب فى السن القانونية أو أعلى منها .

واذا كانت التى ستتزوج ثيباً فلا بد من احضار وثيقة الزواج لزوجها الأول ، ووثيقة الطلاق منه ان كانت مطلقة ، أو شهادة بوفاة زوجها ان كانت أرمل ــ لهذا وذاك وذلك نفقات لا بد أن يقتضيها المأذون .

ومتى تم للمأذون الشرع ما يريد وفاز بقضاء كل ما يطلب ذهب الى بيت العروس متثاقلا مختالا يمشى وراءه تابع له يحمل دفاتره واوراقه ومحبرته ، وهذا التابع له كذلك أجر لا يسكت حتى يناله ولا يرضى حضرة المأذون بعقد العقد حتى يحضر سيد القرية وهو (حضرة العمدة) وبعد تشريفه مجلس العريس ووكيل العروس أمام المأذون ويجمع بين ايديهما ثم يأمر بأن تغطى يداهما بمنديل ويحتم أن يكون من الحرير ليكون له بعد العقد خالصاً ــ وبعد أن

يبدأ كلامه بطلب قراءة الفاتحة للنبى (ص) ، يأخذ فى قراءة خطبة الزواج وعلى أن العقد يتم بكلمتى (الايجاب والقبول) فانه يطيل فى الخطبة ليظهر تعبه ! ويكرر فيها عبارات وألفاظا تمجها النفس الكريمة ولا يستسيغها الذوق السليم ، وبعد اتمام صيغة العقد ينهض العريس فيطوف على الحاضرين ليقبل أيديهم واحدا واحداً ولا بد أن يبدأ بيد حضرة العمدة .

هذا بعض عمله فى ربط عقدة الزواج ، أما فصم هذه العقدة فله فيه حيل يعجز عنها ابليس !

ان الطلاق فى الدين الاسلامى له قيود وله شروط ولا يصح ان يقع هذا الطلاق عند أول خلاف بين الزوج وزوجه ، اذ بذلك يخرج عن الحكمة التى وضعت له ، ويؤدى بالناس الى الفوضى من تفكيك أواصر الأسر ومن ضرر الأولاد واشتعال نار الفتنة بين العائلات مما لايستقيم معه اجماع صحيح .

ولدرء هذا كله أحاط الدين هذه العقدة المقدسة بسياج متين فلا تفصم الا بعد أن يقوم حكم من أهل الزوج وحكم من أهل الزوجة لينظرا فيما يتنازعان فيه ، فان رأيا أن الخير فى الاصلاح بينهما فلهما ذلك وعالجا الأمر بالحكمة حتى يعود الأمر بين الزوجين الى ما فيه المهنأ والسعادة بينهما ، وان رأيا أن الطلاق هو الخير أشارا به ولا يكون ذلك الا فى المرة الثالثة لأن للزوج أن يطلق زوجه

مرتين ثم يعيدها الى عصمته ، ولو كان قد حلف فى كلُ مرة بالطلاق الثلاث وتكون عودتها بغير عقد جديد .

هذا ما يقضى به الدين ، ولكن المأذون الآن قد حل محل الحكمين فان سمع بخلاف بين زوجين أسرع اليهما ومشى بينهما لا بدينه ولكن بأغراضه وفى كثير من الأمر ينتهى الخلاف بالطلاق وبخاصة اذا كان الزوج قد حلف بالطلاق الثلاث فحينئذ ينتهز المأذون هذه الفرصة ويقضى بالفرقة على حين أن ذلك مخالف لروح الدين وهو يفعل ذلك لأن له فيه فوائد كثيرة ، منها انه يحصل على رسم الطلاق ، ومنها انه ينتفع من عقد زواج الزوجة اذا ما تزوجت بزوج آخر وبذلك يكون قد حصل على رسمين جديدين ! ذلك بأن الصلح بين الزوجين والتوفيق بينهما لا يناله من ورائهما شىء !

وقد يعمد اليه بعض الذين يمدون أعينهم الى ما متع الله به ازواجا غيرهم لكى يسعى بالشر بين الزوجين حتى يوقع الشقاق والبغضاء بينهما وينتهى الأمر بالطلاق فتتزوج المراة بمن يريدها واوصى المأذون من أجلها ـ وقد يمد هو عينه فيتزوج بمن وقع فى هواها بعد أن يقطع مابينها وبين زوجها واولادها ، وأشد الفساد الذى يدب بين الأسر فى القرى انما يرجع الى هذا الطلاق ، ذلك بانه أكبر معول يضرب فى مفاصل المجتمع الاسلامى .

وكما يأخذ المأذون رسم الزواج أضعافاً مضاعفة فانه كذلك يفعل فى رسم الطلاق .

ولنقف بالقلم هنا عند هذا الحد فلا نفصل كل ما يقنع هذا الرجل فى سبيل الطلاق ورد الأيمان لأن ذلك يؤدى الى كشف فضائح واظهار قبائح .

ولو ان هذا المأذون قد وقف فى أعماله عند ما ذكرنا وما طوينا لهان الخطب ، ولكنه ينفذ الى كل أمر فى قريته ليفيد منه وينتفع به .

ولمقامه الدينى فى قريته وثقة أهلها به ، يتخذه مشايخ الطرق الذين يهبطون قريته – أو يحتلونها – وسيلة للوصول الى ما يرغبون ومتى رأى القرويون (شيخهم الدينى) قد سار فى موكب (شيخ الطريقة) ازدادوا لهذا الشيخ اكبارا ، ولطريقته احتراما ، وبالغوا فى اكرامه وغمروه (بالنذور والعادات) التى لا حد لها ، وتلقاء ذلك يكون للمأذون نصيب كبير فيما يأخذه شيخ الطريقة من مغانم هذه القرية .

أما فتاواه فحدث ولا حرج فانه فى قريته علامة المعقول والمنقول ، وهو الخبير بأمور الدنيا والآخرة والمطلع على أحوال الجنة والنار .

ولا تقوم قضية شرعية أو مدنية لأحد من أهل القرية الا وفيها للمأذون يد تعمل واذا كان محور غالب هذه الدعاوى يدور فى الغالب على الشهادة فانه هو الذى يلقنها ،

وهو الذى يأتى بمن يؤديها ، وهو الذى يقرر ما يصلح وما لا يصلح ولا يتورع فى ذلك .

واذا كان للعمدة أعوان فى القرية وانصار يظاهرونه على ما يفعل مما سنتحدث عنه ان شاء الله ، فان مأذون الشرع هو أول هؤلاء الأعوان والأنصار .

وناهيك بما يعمل فى التركات وبخاصة التى تؤول الى ذرية ضعاف فيكون ساعد العمدة القوى فى العبث بحقوق هذه الذرية ويصبح العمدة بمعونة هذا المأذون وغيره من الأنصار هو المقصود بقول الشاعر :

لك المرباع منها والصفايا

وحكمك والنشيطة والفضول

وتجده يؤيد عمله بآيات من كتاب الله واحاديث ينسبها النبى (ص) والنبى برىء منها ، ولو أنت اختبرته لوجدته أفرغ من فؤاد أم موسى .

ولعل كثيرا من البدع التى تجرى فى القرى انما يرجع أصلها الى فتاوى مأذونى الشرع فيها فهم الذين يشرعون للناس عن الدين ما لم يأذن به الله ، وتصف ألسنتهم الكذب ، هذا حلال وهذا حرام ، وهذا كفر وهذا ايمان .

حفلات المآتم[1]

لأهل الريف عادات يتبعونها فى مآتمهم وأفراحهم وما الى ذلك لو نظر اليها المرء بعين التحقق لوجد انها مبعث شقائهم ومصدر بلائهم ذلك بأنها تأكل من أموالهم ، وتهد من كيانهم وقد تؤدى بهم الى خراب بيوتهم .

ومن العجيب انك تراهم جميعا قد جمدوا على هذه العادات فقيدوا أنفسهم بقيودها وغلوا أعناقهم بأغلالها حتى استعصى شفاؤها وعز دواؤها ، ولسنا ندرى من أية ناحية أصابتهم هذه العادات ، لأننا اذا نظرنا اليها من ناحية الدين ألفيناها تنافى أحكامه وتخالف تعاليمه . اذا عرضناها على قانون الاقتصاد وجدناها تعارض احكامه ، ولا تتفق مع أصوله .

وان هذه العادات التى تمكنت من نفوس أهل القرى وتغلغلت أصولها فى أرضهم لتدعو المصلحين الى أن يوجهوا عنايتهم لمعالجتها والعمل على استئصال شأفتها حتى يقضى عليها ، ومن ثم يخلص لأهل القرى دينهم ويحفظ لهم مالهم وتطيب حياتهم .

ومن هذه العادات الوبيلة التى تهد من كيان القرى

---

(١) المأتم لغة هو الجماعة فى حزن أو فرح وغلب استعماله فى الاحزان .

عادة اقامة الحفلات فى المآتم فانهم يرتكبون ضروبا من الاسراف لا يقرها دين ولا يؤيدها عقل ، وليس يخفى انه ليس على الأحياء للميت الا أن يكفنوه برخيص القماش ثم يدفنوه وبعد ذلك ينقلبون الى شؤونهم ويتولون امورهم كما كانوا .

هذا هو ما يجب عليهم حتى لقد قالوا « اكرام الميت دفنه » اما ما يجرى الآن فانه لا يدل على ذلك وانما يدل على أن أهل الميت لا يعنون بميتهم بمقدار ما يعنون بالناس ، فيعملون للناس ما شاء الاسراف أن يعملوا ويبذلون فى سبيل الظهور امامهم ماشاء البذخ أن يبذلوا حتى تصير هذه المآتم وكأنها حفلات فرح يؤمها الناس لكى يستريحوا فيها ويلهوا بها ــ يتخذونها للحديث نهارا والسمر ليلا .

تراهم معنيين باقامة السرادقات والتأنق فى تنسيقها والتغالى فى فرشها واحضار اشهر المقرئين اليها ، واعداد افخر الطعام لها وغير ذلك مما يطول التحدث فيه .

يموت الميت فلا يكون هم أهله الا كيف يكفن ، وكيف تشييع جنازته ، وكيف يقام مأتمه ــ وكثير من اهل القرى لا يكتفون فى تكفين موتاهم بالقماش الرخيص ، بل لا بد ان يكون هذا الكفن من الحرير ، وبعد ان يكفن يشيع فى موكب كبير الى القبر ، ويتألف هذا الموكب من جماعات ينظمها فقيه القرية فيجعل جماعة لقراءة (بردة البوصـــيرى) ويقيم لها حاديا يقرأها بيتا بيتا بطريقة غنائية وكلما فرغ

ن بيت ردد الجماعة مطلع القصيدة بصوت جهورى ، ويحمل جماعة أخرى لقراءة القــرآن الكريم فى أجزاء منفصلة يحمل كل واحد منهم جزءاً وتحمل جماعة ثالثة نسخا من كتاب دلائل الخيرات ، ويكون لهذه الجماعات فى قراءتها جميعا عجيج وضجيج يذهب بجلال الموت ورهبته ويغطى على ناحية العظـــة والاعتبار ويقضى على حكمة تشييع الجنازة ، ولا بد أن يؤتى (ببيرق) الطريقة الصوفية التى يتبعها الميت أو تتبعها أسرته [1] فينشر على النعش ليظلله ، ويقولون ان هــذا مما يخفف شيئا عن الميت ويضاعف من حسناته .

ويسير موكب الجنازة يتقدمه عمدة القرية وكبار المعزين الذين يأتون من القرى المجاورة للعزاء ، ويتبعهم من هم دونهم فى المنزلة ثم يسير من يليهم وراءهم وهكذا ، واذا ما ادخل الميت فى قبره وهيل عليه التراب تقدم فقيه القرية الى القبر فيجلس أمامه ثم يأخذ فى تلاوة عبارات (يلقن) بها الميت لكى يحفظها ويجاوب الملكين (منكر ونكير) اللذين سيسألانه بعد انصراف المشيعين من حوله ــ حتى اذا ذكر لهما الميت ما تلقــاه من الملقن أمن عذابهما ! وتخطى هذا البرزخ بسلام !

وبعد ما يفرغ صاحبنا الفقيه من تلقينه ، ويأمن أهل

---

(١) كل قروى يجب أن ينتسب الى طريقة صوفية وان يكون له شيخ ومن قولهم : من لا شيخ له فشيخه الشيطان .

الميت على ميتهم من ضرب الملكين بالمرزبات ـ وهما يضربان بها الميت الذى لا يحسن الجواب فيهوى الى الأرض السابعة ثم يرتفع ثانية ليتلقى الضربة الثانية وهكذا ـ بعد ما يأمن أهل الميت على ميتهم من هذا العذاب المقيم ـ يصطفون ومعهم أقاربهم صفا واحدا ويمر كل مشيع للجنازة عليهم واحدا واحدا مصافحا ومعزيا ثم يعود الجميع بعد ذلك الى السرادق الذى أعد للمعزين أو الخيمة التى ضربت لهم بحسب مقدرة أهل الميت فيجلسون حسب منازلهم فى الحياة ولكل منهم مقام معلوم لا يتعداه ، فكبراؤهم يجلسون فى صدر السرادق على مقاعد مكسوة بالقطيفة الحمراء ـ وهى علامة على أنها الدرجة الأولى ـ ومن يليهم يجلسون على مقاعد قطيفتها خضراء ـ هى علامة على انها الدرجة الثانية أما سائر المعزين فانهم يجلسون على كراسى من الخيزران ويقوم باجلاس الطبقة الأولى والثانية فريق من أهل الميت او من أصدقائهم فيسيرون أمام الواحد منهم حتى يجلس فى مكانه اللائق به ـ وحتى فى المآتم ترى هذه الارستقراطية بادية وعندما يجلس المعزى تدور عليه فناجيل القهوة [1] ، المعروفة واستصحيح أهل اللغة فى استعمال هذه اللفظة لهذا المشروب المصنوع من البن لشهرتها .

وهذا الحفل لا يكمل الا اذا جىء له باحد مشهورى القراء يتلو القرآن لا كما أراد الله أن يقرأ ولكن يقرأه بتلحين

---

(۱) القهوة فى اللغة هي الخمر .

وتطريب ولا بأس أن تسمع عند ما يقف القارىء على آية اصوات الاستحسان تتعالى بين جوانب السرادق .

ويظل هذا الحفل قائما ثلاثة أيام كاملة يتناول فيها المعزون القهوة وكثير منهم يتناول الطعام وفى أثناء هذه الأيام يأخذ جماعة من فقهاء القرية وعلى رأسهم شيخهم مكانا لهم ليقرأوا فيه (العتاقة) المعروفة وهى التى تعتق رقبة الميت من النار وتكون كبرى أو صغرى ـ حسب رغبة أهل الميت ـ والكبرى تكون بقراءة سورة (الصمد) مئة ألف مرة ـ والصغرى تكون بقراءة (لا اله الا الله) ثلاثين ألف مرة أو خمسين الفا ويحسب العدد بعدد من يقرأون فاذا كان القارئون عشرين حسبت المرة الواحدة بعشرين وهكذا ولا يعلم الا الله ان كان هذا العدد سيتلى كله أو بعضه لأن ذلك راجع الى ذمة (شيخ الفقهاء) .

ويقرأ الفقهاء ما يقرأون بعضهم مع بعض بصوت مرتفع ليسمعوا أهل الميت أنهم يقراون ولا يقل ثمن العتاقة الكبرى عن مئة قرش وقد يصل الثمن الى خمسة جنيهات اذا كان الميت غنيا ـ ولا يقل ثمن العتاقة الصغرى عن خمسين قرشا وقد يبلغ مئة قرش ـ وقد يكتفى الفقراء بقراءة (الخاتمة) لميتهم وهى قراءة القرآن من جماعة يقسمونها بينهم وهم يقراونه فى ساعة أو ساعتين وعلى أن الخاتمة هى قراءة القرآن كله فان اسيادنا الفقهاء يجعلون الخاتمة بحسب هواهم فتكون مرة ربع القرآن ومرة تكون بعض

سور منه وذلك تبعا لما يأخذون عليها اجراً وأجر الخاتمة من خمسة قروش الى عشرين قرشا .

ولاينتهى الحزن على الميت بهذا المأتم بل لابد من الاحتفاء (بالخميس الصغير) وهو يوم الخميس الذى يلى يوم الموت ، ثم (الخميس الكبير) وهو يوم الخميس الذى يلى الخميس الأول ولا يتكفى بالاحتفاء بهذين اليومين بل يعمل للميت (الكعك) ويحمل الى قبره فى هذين اليومين وقد يكون مع هذا الكعك شيء من الفاكهة ويوزع من ذلك شيء على الاطفال والباقى يعطى ثمنا لمن يقرأ بعض آيات من القرآن على القبر .

وكذلك تعمل حفلات للميت فى ليلة الأربعين ، وفى ليالى المواسم الدينية وفى العيدين الصغير والكبير .

هذا ما يعمل للميت بالقرى ولا تسل عما يذهب فى ذلك من مال ، وما يرتكب من بدع وكلها كما قلنا أعمال منافية لأحكام الشريعة الغراء ومخالفة لقوانين الاقتصاد فالكفن الذى يغالون فيه كان يكفى كما قلنا بأن يتخذ من القماش الرخيص وقد كفن مصعب بن عمير يوم احد بنمرة (بردة من صوف يلبسها الأعراب) وكانوا اذا غطوا بها رأسه خرجت رجلاه ، واذا غطوا بها رجله خرج رأسه ! فقال رسول الله غطوا بها رأسه واجعلوا على رجليه الأذخر وهو نبات طيب الرائحة كان العرب يجعلونه فى بيوتهم وقبورهم .

قضت السنة المحمدية بان يكون المشيعون للجنازة

سكوتا حتى تتحقق العبرة وتبدو الموعظة ذلك أن رفع الصوت فى الجنازة ولو كان بالذكر وقراءة القرآن مكروه .

ومن أحكام السنة كذلك أن ينصرف الناس الى أعمالهم بعد تشييع الجنازة ، وقد أباح بعض المذاهب لأهل المصيبة أن يجلسوا لتلقى التعزية على شريطة أن يكون ذلك فى منازلهم ومنع بعض المذاهب الجلوس للقراءة سواء أكان فى المنزل أم فى غيره وجعلوه مكروها .

أما اطعام الطعام فى المآتم فهو بدعة ، وقد عكس الناس الآية لأن الأمر قد جاء بأن يهيىء الناس الطعام لأهل الميت[1] .

ولو شاء الباحث أن يصل الى معرفة السبيل التى يأتى منها الانفاق على هذه المآتم لوجدوا أن السواد الأعظم من أهل القرى ينفقون عليها من المرابين الذين يقرضون المال بفوائد فاحشة ، وشطار المرابين يهتبلون هذه الفرصة فيشتطون فى أخذ الفوائد حتى لقد تبلغ ٣٠٪ ولا يجد الآخذ مفرا من القبول « والمضطر يركب الصعب » وهو عالم بركوبه — وهذا وربك هو مصدر لبلاء كبير يحيق بأهل الميت وذريته الذين يتركهم ضعافا فتستصفى هذه الحفلات ما يكون لهم من ميراث قد ورثوه من آبائهم قبل

---

(١) روى أبو داود عن عبد الله بن جعفر قال : لما جاء نعى جعفر قال رسول الله : اصنعوا لآل جعفر طعاماً فانه قد أتاهم أمر يشغلهم ، وقد قالوا ان صنع أهل الميت طعاما للناس مكروه .

أن يعرفوا الدنيا والتعامل فيها وتخرج تركتهم وهى فى مهدها مثقلة بالديون ، وتظل هذه التركة على وعده حتى يدركها الاعياء ثم ينتهى أمرها الى الفناء .

وهكذا يذهب أغلب التركات فى القرى بسبب حفلة مأتم أو حفلة عرس .

واذا التفتنا الى الميت لم نجده قد استفاد من كل ما عمل باسمه شيئاً ــ ذلك بأنه ليس له الا ما قدمت يداه قال تعالى : « وأن ليس للانسان الا ما سعى ــ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

العمدة

العمدة هو حاكم القرية المطلق ، يقضى فيها بأمره ويحكم أهلها بهواه ــ فبيده سعادة القرية وشقاؤها ، ونعمتها وبلاؤها ، ان شاء جعلها جنة عالية ، وان شاء جعلها نارا حامية ، ولو استقام أمره ، وعدل فى حكمه لاستقام كل شىء فى القرية اذ هو الأساس الأول فى بناء الحكم فى البلاد فان كان هذا الأساس صالحا كان كل ما قام عليه صالحا ، وان كان فاسدا ، فقد فسد كل شىء بعده .

وعلى أن هذه الوظيفة لها فى النظام الاجتماعى هذا الشأن العظيم ، فان الحكومة لا تشترط فيمن يتولاها غير معرفة القراءة والكتابة وأن لا يقل ملكه عن عشرة فدادين

وهى شروط هينة أما ما وراء ذلك من الصفات التى تجعله أهلا لأن يضطلع بهذا العبء الثقيل ، فلا يلتفت اليها ولا يؤبه بها ، وقد يعدل عن هذين الشرطين فيتولاها الأمى ومن يملك خمسة أفدنة أو أقل منها الى فدان واحد !

ويخول العمدة ما لا حد له من السلطة ويمد له من السلطان مدا ، وهو مرجع الحكومة فى كل شىء بالقرية ، لا يسأل أحد غيره ، ولا يؤخذ رأى لسواه فهو يسير بغير قانون ، ويحكم بغير شرع ! ومن أجل ذلك نرى يده تعمل فى كل شىء فى قريته ونفوذه ينفذ الى كل أمر فيها . وبهذا السلطان الشامل يهيمن على الناس ويمد رواق سيطرته عليهم ، فيكون الحاكم بأمره بينهم وهذا هو علة ما يرى من تطاحن أهل القرى على الظفر بوظيفة العمدية وسر تقاتلهم على اقتناصها حتى لقد يؤدى هذا الصراع فى بعض الأحايين الى ازهاق أرواح وضياع أموال .

ولو أنت شهدت ما يجرى فى القرى عندما تخلو فيها وظيفة العمدية لقضيت عجبا ــ اذ تثور أعاصير الخصومات ، وتشتعل جمرة المنافسات ــ اذ يسعى كل فريق للانتصار على خصمه ، والاستحواذ على هذه الوظيفة من دونه ، وقد بلغ الأمر الى أن تحدث أزمة وزارية من أجل تعيين عمدة !

ولو كنت ممن ينشدون الاصلاح لتمنيت لو أن أولى

الأمر يعملون على تغيير نظام العمد فى القرى ذلك النظام العتيق الذى انقضى عليه أكثر من نصف قرن من غير أن يناله تغيير أو تبديل حتى توقى البلاد شر ما ينحط عليها من الكوارث ، وما يصيبها من البلاء .

ولا تسل عما يصطلى به أهل القرى من نار هذه الخصومات والمنافسات ، فان الذى يتم له الظفر بالعمدية ينقلب الى قريته مزهوا بنصره مختالا بتغلبه وقد يزفه أنصاره بالطبول والزغاريد وهو عائد الى بلده كأنه آيب من انتصار فى معركة حربية ، وتراه لا ينى فى الكيد لمن كانوا ينافسونه ولأنصارهم والحاق الأذى بهم ـ ومن ثم يأخذ هؤلاء المنافسون فى صد العدوان عنهم فتأخذه العزة بالاثم ! اذ ليس فى شرعه ، أن يقوم احد فى وجهه ، أو ينازله رجل من رعيته فيبطش ويعمل ما استطاع على الحاق الضرر بهم وقد تطول هذه الحرب الضروس وقد تقصر ، والبلاء فى كلا الحالين واقع بأهل القرية .

وقليل من القرى ـ تلك التى تسلم من هذه المعارك أو يقيها الله شر أسبابها .

هذا ما يصنعه مع خصومه أما عمله فى القرية بعد ما يستوى على عرش ملكه فكله يرجع الى شخصه والى ما يعود بالنفع عليه ولما كان نفوذه ـ كما قلنا كبيرا وسلطانه عظيما فانه يجد السبل أمامه كثيرة ، والوسائل متعددة لكي ينتجع لنفسه الخير منها ، والشباك

كثيرة لا حصر لهـا يتخير منهـا ما يشاء ليصطاد ما يريد صيده بها .

ولا يفوتنا أن نبين أن ما نذكره هنا هو ما نعرفه عن الكثرة الكثيرة من العمد لا عن جميعهم لأن فيهم من يسير على النهج القويم ولكنهم قليلون جدا حتى ليمكن عـدهم على الأصابع فى كل اقليم .

يجعـل العمدة أول همـه أن يستبدل بخفراء القرية غيرهم لأن الخفراء فى القرى ليسوا لأهلها ولا يقف عملهم عند حراستها وانما هم العمدة وحده يعملون له ويقيمون بحاجاته وهم جلادونه وعدته فى البطش بمن يريد البطش به ومن يأتى بهم اما أن يـكونوا من أقاربه لتتم العصبية واما أن يكونوا من أنصاره .

ولا نعرض هنا لما يفعل بهؤلاء الذين ينتظمون فى سلك الخفر ـ وبخاصـة من الذين ليسوا من اقاربه ولا بمـا يبذلونه فى سـبيل الحاقهم بوظيفتهم ، أو فى سـبيل استمرارهم فيها ! لأن مدة خدمتهم تجدد كل ثلاث سنين ولا تتجدد الا اذا رغب العمدة فهم من أجل ذلك فى حاجة شديدة الى مرضاته !! ومرضاته لا تكون رخيصة !!

لا نعرض الى شيء من ذلك فان أهـل القرى جميعا يعـرفونه وما نظن أنه يخفى على الحكام المتصلين بهؤلاء العمد ، ومما يعين العمدة على قضاء مآربه من هذه السبل أن أمر اختيار الخفراء وامتداد خدمتهم موكول اليه ، فهو

الذى يختارهم وهو الذى يوافق على امتداد مدة خدمتهم .

وليت أمر هذا الخفير المسكين يقف عند ذلك بل أمامه عقبة لا بد أن يقتحمها وهذه العقبة هى (طبيب المركز) الذى سنتحدث عنه فيما بعد اذ لا بد لهذا الخفير من أن يرضى طبيب المركز ورضا الطبيب معروف مقرر .

واذا فرغ العمدة من أمر اختيار الخفراء وجه عنايته الى ادارة شؤون قريته والفصل بين أهلها فيضع أمامه ميزانين وكيلين فمن يرضى عنه كان سعيدا موفقا ووفى له ميزانه ومن يغضب عليه فهو الشقى الحائر وأخسر ميزانه

وتراه لا يدع أمراً من أمور قريته الا نظر اليه وقضى فيه لا كما يشاء العدل والانصاف ولكن كما يريد الظلم والهوى .

ولنجعل أول كلامنا عما يعمل فى أمر ضريبة (أجرة الخفر) وهى الضريبة الظالمة التى ترك له أمر فرضها على الناس بغير رقيب ولا حسيب ينص القانون بأن توزع هذه الضريبة على أهل القرى بحسب مقدراتهم بالعدل والانصاف ، ووكل القانون أمر هذا التوزيع الى لجنة تؤلف من مشايخ البلد ومن مأذون الشرع وصراف القرية وبعد ما يتم هذا التوزيع بوساطة هذه اللجنة يعمل به بيان يعلق أياماً على باب منزل العمدة لكى يطلع عليه أهل القرية جميعا فاذا لم يعترض عليه أحد أصبح هذا التوزيع سارى المفعول ويعتبر عادلا مقبولا — واذا اشتكى أحد منه

نظر فى شكايته بعين العدل حتى لا يرهق أحد ولا يظلم انسان !

هذا ما يقضى به القانون ولكن للعمدة قضاء غير قضاء القانون ـ ذلك أنه عندما يطلب منه توزيع ضريبة الخفر يعكف فى مكان خاص مع عامل التلفون وصراف القرية فقط ـ ومن كتب له السعادة من أهل القرية وكان ممن يظفر برضا العمدة حمل شيئا ضئيلا من هذه الضريبة ـ ومن كان من أهل الشقاوة وحل عليه غضب العمدة أثقل كاهله منها ـ ومن يحلل عليه غضب العمدة فقد هوى ورضا العمدة يكون فى أشياء كثيرة ـ يكون فى (قضاء حوائجه) والعمل فى زراعته بنفسه وماشيته وما الى ذلك والمغضوب عليهم فهم الذين اذا سئلوا حاجة للعمدة شحوا وقبضوا أيديهم ، وان كلفوا أمرا من قبله أمسكوا وولوا وجوههم وانى لأعلم عن يقين أن رجلا فى احدى القرى لا يملك غير فدانين وله ولد مر على صديق للعمدة وهو راكب فلم يترجل تأدبا منه ! فكبر ذلك على حضرة الصديق وكان ممن يأمر وينهى فى القرية وأخذته العزة بالاثم وأسرها فى نفسه حتى اذا جاء زمن تعديل أجور الخفر (وهى تعدل فى كل سنة مرة) فأوقع على والد هذا الولد جزاءا وفاقا ـ وكان هذا الجزاء أن اصبحت ضريبته التى يؤديها تسعة جنيهات فى السنة .. وكانت قبل هذه الجريمة التى اقترفها ولده ولا تبلغ جنيهين ! وليت هذه

الضريبة قد بقيت على ذلك فقد بلغت فى العام الثانى اثنى عشر جنيها !!

هذا على حين أن عمدة هذه القرية وهو يملك نحو خمسين فدانا ليس عليه من هذه الضريبة غير خمسين قرشا فى السنة .

وأعرف رجلا آخر فى قرية أخرى كان يفتدى نفسه من ظلم هذه الضريبة وغيرها بخمسة جنيهات يؤديها للعمدة فى كل عام غير محراثه وماشيته التى تعمل فى زراعة العمدة وغير البن والصابون والسكر الذى يقدم لمضيفة العمدة .

واذا ما استطاع أحد من أهل القرية أن يعرف ماوزع عليه مما يتناثر من أقوال عامل التلفون أو الصراف لأن هذا التوزيع يعمل فى خفاء ولا يعلم أهل القرية من أمره شيئا — ورفع شكاية مما حاق به من ظلم أحيلت هذه الشكاية الى خصمه وهو (العمدة) (لابداء الرأى) فيجيب عنها بأنه قد جمع لجنة الخفر وأعادت النظر فى أمر الشاكى فلم تجد له حقا وان ما ربط عليه انما كان على قدر قوته وقد روعى فيها العدل والانصاف — ويأتى مأذون الشرع وهو أحد أعضاء لجنة الخفر — كما بينا — (فيشهد ويعترف ، بأن توزيع أجور الخفر قد تم بالعدل والانصاف وبذلك تذهب شكاية الشاكى سدى وويل له من العمدة اذ كيف يشكوه فى أمره .

وأعرف عمدة بعث اليه مأمور المركز عشرين

تذكرة [١] من تذاكر حفلات احدى الجمعيات الخيرية ليوزعها على أهل بلدته وثمن التذكرة عشرون قرشا فانتشر الخفراء بين أرجاء القرية ليحصلوا ثمنها من الأهلى وأهالى القرى لايعرفون من أمر هذه التذاكر شيئا فيؤدون ثمنها بغير أن يروا للتذاكر وجها وقد استطاع العمدة أن يجنى من ثمن هذه التذاكر أكثر من عشرين جنيها اشترى بهـا فرسا تجر نورجه الذى يدرس قمحه ـ وليته أعاد للمركز ثمن التذاكر ! ولكنه أعادها ثانية وزعم بأنه لم يستطع توزيعها .

وأذكر انى ذهبت فى احـــدى ليالى رمضان الى بلدة مجاورة لبلدتنا لزيارة أصدقائى فيهـا وبينما أنا أسير مع عمدتهـا وصـديق لى معنا لزيارة بعض أهلهـا اذ قال لى هذا العمدة : هل لك فى أن تزور هذه الخيمة المضروبة فى جرن البلد فلم أمتنع وذهبنا جميعا اليها فوجدنا فيهـا شيخا كبيرا يجلس مع زوجتين له ـ وبعد أن شربنا القهوة اتجه الشيخ بالحـديث الى صاحبى العمـدة وقال له : « صاحبك زعّل الجماعة اليوم ! » وكنا حينئذ يوم الخميس فقال له : وكيف كان ذلك ؟ قل : انه كان يحاسبهم على

---

(١) لا يكاد ينقضى يوم حتى يأتى الى العمد تذاكر لحفلات تمثيلية وغيرها من المركز لكى يوزعها على أهالى قريته مما ضج الناس منه ولم يجدوا من يرحمهم من هذه الضرائب والمتوطنة التى يجعلها العمد من أسباب تجارتهم لانهم يجبون من الاهالى ضعف ثمنها ويكون هذا الضعف خالصا لهم اذا أدوا ثمنها لأصحابها .

أكثر من نصف (ما ينشلون) ولا يصدقهم اذا حلفوا له وبعد حديث طويل بينهما نهضنا من خيمة الشيخ ولما سألت هذا العمدة عن تفسير مادار بينه وبين الشيخ من حديث فقال : أما صاحبى فهو صاحبك كذلك وهو فلان عمدة بلدة كذا .. أما الجماعة فهما زوجتا الشيخ ــ وأما الزعل فلأنهما لما ذهبتا الى (سوق الخميس) التى تقع ببلدته ضايقهما فيما ينشلاه من جيوب الناس وحاسبهما حسابا عسيرا على غير العادة اذ ليس له من حق فيما ينشله النشالون الغجر من سوق بلدته غير النصف .

وسوف نتحدث عن الأسواق فى القرى فيما بعد .

الأمن العام (١)

وفض المنازعات الريفية

نشر حضرة الفاضل عمدة بردنوها كلمة فى جريدة المقطم عن المنازعات الريفية وتصرف العمدة فيها ، وضرب المثل بعمله هو فى بلدته من أنه يسعى لحسم مادة المنازعات بالحسنى ، وانتهى بعد ذلك الى أن طلب : أن يعطى العمدة سلطة الحكم بعشرين قرشا !

ونحن وان كنا نشكر لحضرته ما يصنعه فى بلدته ، ونود أن يكون فيه أسوة لسائر العمد لأن هذا هو واجب كل عمدة نزيه الا أننا نذكر لحضرته — والواقع يؤدينا — ان أكثر العمد لا يعملون مثل عمله ولا يمشون على صراط الحق فى قراهم وانما يكون العمدة هو المثير لأعاصير النزاع فى قريته والموقد لنار الفتنة فيها لما يعود عليه من وراء ذلك من النفع ، واذا كان المثل الفرنسى يقول : « فتش عن المرأة » فأجدر بنا أن يكون هذا المثل فى بلادنا « فتش عن العمدة » ولو نحن آثرنا احصاء أعمال العمد فى قراهم — أو عمل

(١) رأينا ان نثبت كلمة نشرناها ردا على حضرة عمدة بردنوها فى جريدة المقطم الصادرة فى ٦ سبتمبر سنة ١٩٢٨

عمدة ,واحد منهم لطال بنا نفس القول ــ وانما يضطرة سياق الحديث الى ان نبين بعض أعمال احد العمد ليكون ذلك فى مقابل عمل حضرة عمدة بردنوها حتى يتبين الفرق بين العمدة الصالح ، والعمدة الطالح .

هذا العمدة لا يدع أمرا فى بلدته الا استغله ، ولا فرصة تمر عليه الا اقتنصها ــ واذا علم ــ مثلا ــ ان امرأة اختلفت مع زوجها أوعز اليها ان تخاصمه الى المحاكم ووعدها بانه سيعاونها فى قضيتها على زوجها ، ثم تنقلب رسله الى هذا الزوج فيملأون صدره ضغنا على زوجه ويوهمونه بانه لا مخرج له الا بالاتفاق مع العمدة ، حتى اذا استعرت نار الخلاف بين الزوج وزوجه القى هو بشباكه يصطاد من هنا ومن هنا !

واذا رأى أحدا له دين على آخر حرضه على الشكوى ثم يرجع الى المدين فيوسوس له بأن لا يؤدى ما عليه من دين ولا خوف من ذلك لأن الدائن لا يستطيع ان يحجز عليه اذا ما حكم له لأن العمدة هو المرشد فاذا قال للمحضر الذى يوقع الحجز ان فلانا ليس له ملك فهو كذلك ، واذا قال ان له ملكا كان كذلك ! ويظل بين هذا وذاك حتى اذا صدر الحكم لصاحب الدين تناول أجر الحجز منه ثم تنسال شياطينه الى المدين فيقولون له ان الحجز قد وقع رغم انف العمدة ويسولوا له أن يرفع دعوى (استرداد) ما حجز له وبعد ان يؤدي ما عليه العمدة يوحي الى بعض اهل بلده

ليشهدوا بأن الأشياء المحجوز عليها ليست ملكا للمدين وهكذا يتحقق الدور والتسلسل فى مثل هذه الأمور .

وتمثل مثل هذه الأدوار فى كل أمر من أمور القرية ـ واغرب شيء اقترفه هذا العمدة فى قريته ـ مما يزداد به عجب، حضرة عمدة بردنوها وغيره من الصالحين فى بلادهم ـ انه أوعز الى أحد أقاربه أن يشترى جزءا من الطريق العام للبلدة وأمره أن يرفع دعوى اثبات توقيع ثم أشار على البائع أن يواطئه على ذلك فى المحكمة (ويلاحظ أن القضية لم تكن لاثبات ملكية وانما لاثبات توقيع) ولما أخذ المشترى الحكم أخذ العمدة يساوم أهل القرية فى ثمن هذا الطريق ولما عجبوا من عمل هذا لأنه طريقهم وطريق آبائهم منذ قرون ، وامتنعــوا عن أداء أى قرش له ـ انقلب الى ضابط النقطة واتفق معه على أن يقبض على كل من يعارض المشترى فى وضع يده على الطريق وبخاصة الذين لهم بيوت قائمة على جانبى الطريق ، ثم نهض الضابط تؤيده قوة الخفر ومكن الذى اشترى الطريق من ان يقيم عليه بناء قطع على الناس سيرهم على هذا الطريق وسد منافذ وأبواب البيوت القائمة حوله .

وهذه القرية الآن تغلى مراجل الخصومة فيها من هذا العمــل واقيمت الدعاوى أمام المحاكم ورفعت الشكاوى لرجال الادارة ـ وكل ذلك من عمل حضرة العمدة ـ فقل لى بربك ماذا يكون الأمر لو اعطت الحكومة للعمد ســلاحا

جديدا من النفوذ بأن يحكموا بعشرين قرشا فى قضايا القرية ؟ لقد كان لهم من قبل سلطة بأن يحكموا بخمسة عشر قرشاً أو بالسجن ٢٤ ساعة ، ولما رأت الحكومة — وهى على حق — انهم أساءوا استعمال هذه السلطة انتزعتها منهم .

اللهم ان الأمر فى القرى يقتضى من أولى الأمر بأن يتولوه باصلاح وأن يكون أول شيء يعنون به هو نظام العمد فيجعلوا أول شرط فيمن يتولى منصب، أن لا يقل ايراده الشهرى عن عشرة جنيهات، حتى لا يدفعه فقره الى استنزاف أموال الناس بمختلف الأسباب .

والبلاد التى ليس فيها من لم يتوفر فيه هذا الشرط فلا داعى لاقامة عمدة فيها ويكفى بما فيها من مشايخ وهم يستطيعون أداء كل أعمالها ، وانى قبل أن أختم كلمتى هذه أرجو من حضرة عمدة بردنوها أن يقول كلمته فى عمدة هذه القرية وأمثاله .

ذكرنا فيما تكلمنا عن العمد هنا كيف يقضون فى تعيين خفراء البلاد وقلنا ان وضع أمر اقامة هؤلاء الخفراء بأيدى هؤلاء العمد فيه ضرر كبير ، ومن أجل ذلك نثبته هنا كلمة نشرناها بجريدة المقطم هذا عنوانها :

اصلاح نظام الخفر

حضرات الأفاضل اصحاب المقطم :

كتبنا كثيرا على صفحات المقطم عن نظام الخفر وابنـا بالادلة التى لا تقبل جدلا ما فى هذا النظام من عيوب ، وكان اهم ما قلناه ان أول شيء يرجع اليه عقم هذا النظام هو تعيين الخفراء ، والطريقة المتبعة فى هذا التعيين ثم طلبنا أن يكون تعيين الحراس النظاميين من غير الذين يقـع عليهم اختيار العمد ، لأن هذا الاختيار انما يقع بعد امور لا تشرف ومن اجل ذلك يكون أمر الخفير معلقا بارادة العمدة ان شاء رحمه وان شاء عذبه .

طلبنا أن يخـرج تعيين الحراس النظاميين من أيدى العمد وأن لا يكون الخفير من نفس البلد الذى يعين فيه لأنه بما يكون له من اقرباء واصهار واصحاب لا يقوم بما عليه كما يقوم الخفير الأمين ثم لأنه وهو فى بلده يتخذ له اعمالا غير عمله الرسمى من زراعة أو تجارة وبذلك لا يستطيع أن يؤدى عمله فى الليل لما أنفقه من جهد فى النهار .

طلبنا كل ذلك وقد ارتاحت نفوسنا ونفوس جميع محبى الاصلاح لما بشر المقطم الجمهور بأن الحكومة قد عولت على اخذ الخفراء النظاميين من رجال القرعة العسكرية ، وانها ستستبدل بالخفراء الحاليين رجالا من عساكر الرديف .

ونحن مع شكرنا للحكومة على ما أجابت من دعوة الحق ،

فاننا نطالبها باجابة ما بقى من ضروب الاصلاح وذلك بان يخرج هؤلاء الخفراء من تحت سيطرة العمد حتى يتفرغوا لأعمالهم ، ولا يشغلهم غير واجبهم ، ثم تمنع منعا باتا أن يعين خفير فى بلده لكيلا يجد من أغراض أقربائه وأهواء أصحابه وأهله ما يجعله يتخطى الواجب فى عمله ، ويسير تبعا لأهوائه ومآربه .

وكذلك لا تنسى حكومتنا أن تجعل من اصلاحها لنظام الخفر ان يكون الخفير مسئولا عن أداء عمله مسئولية لا تدعه يفلت من يد القصاص اذا تهاون فى واجبه وان توقع عليه غير مسئولية العقاب جزاء ماديا .

هذا ما نطالب الحكومة بتنفيذه بعد ما نفذت اهم شيء من الاصلاح وهو ان يكون الخفير من العساكر النظاميين [1] .

وليعلم رجال الحكومة انهم لو اتبعوا ما اشرنا اليه ونفذوه بدقة فان النظام فى القرى يصلح حقا ، وتتوطد دعائم الأمن ويصبح النـاس ـ ولا سيما فى القرى التى لا ينبلج صبح الا عن مروعات ومفزعات تقع فيها ـ فى امن واطمئنان .

هذه كلمتنا ونرجو ان تكون الأخيرة فى هذا الشأن الخطير وأن لا يكون بعدها الا كلمات الشكر نزجيها الى رجال حكومتنا على ما يعملون ، كما شكرناهم على ما عملوا والله يتولى الصالحين .

---

(١) هذا ما ذكرته جريدة المقطم ولكنه لم يتحقق .

الزرع والزراع

يعمل أهل القرى فى فلاحة أرضـــهم ، كما كان يعمل آباؤهم من قبلهم ، ويتبعون فى طرق الزراعة ما عرفوه من أسلافهم ، ويزرعون من الزروع ما كان يزرع الذين سبقوهم من أجدادهم بلا تنويع ولا زيادة .

ومع أن الأمور كلها قد تغيرت وأحوال الدنيا قد تبدلت والعلوم قد تقدمت فان الزارع المصرى لم يتغير شىء فى حياته الزراعية ، ولا فتح له سبيل جديد نافع يصل منه الى الخير .

ومن عجب ان أهل القرى يرون أثرا لكل وزارة من وزارات الحكومة ويحسون شيئاً من أعمالها اللهم الا وزارة الزراعة فانهم لا يكادون يشعرون فى أمورهم الزراعية بها ، على حين أنها الوزارة الوحيدة المختصة بها والتى ما خلقت الا لاجلها .

انهم يرون تأثير وزارة المالية فى مسح أرضهم وأداء الضرائب التى عليها ووزارة المعارف فى معاهد العلم ووزارة الداخلية فى حفظ الأمن ووزارة الحقانية فى القضايا ووزارة المواصلات فى السفر على قطاراتها الخ . أما وزارة الزراعة فلا يكادون يعرفون من أمرها شيئا اللهم الا بضع منشورات

توزعهـا على العمد وهؤلاء يلقونها فى حجـرات التلفون ولا يفهمون منها شيئا .

ولا يحسبن أحد أنا من المغالين فيما نقول لأنا لا نعرف الغلو ولا نميل الا الى تصوير الأمور بصورتها الحقيقية .

واليك مثـلا القطن الذى تدور عليه رحى الثـروة المصرية فى البلاد ، وهو المحصول الأساسى الذى تقوم عليه الحياة الاقتصـادية ــ تراه يزرع كما كان يزرع فى زمن محمد على باشا فتحرث له الأرض بهذا المحراث العتيق ذى النير الثقيل الذى يلقى على أعناق الماشية ويشق الأرض ببطء شديد واجزاء هذا المحراث هى هى ! وبعد ما تحرث الأرض به مرتين أو ثلاثاً تقسم الى خطوط مستقيمة ثم توضع البـذور فى الناحية الشمالية منهـا اذا كانت من الشمال الى الجنوب ــ وفى ناحيتها الشرقية اذا كانت من الشرق الى الغرب ويكون وضع البذور على أبعاد أقلها عشرين سنتى مترا وتسقى الأرض بعد البذر مباشرة ثم يأخذ الزراع فى تعهد زرعه بالرى والعـذق حتى يؤتى ثمره ويجنى .

كل ذلك يجرى على طريقة واحدة مطردة يقلد فيها الزارع من سبقه ، وماتراه فى القطن تراه فى سائر أصناف الزرع .

واذا نظرنا الى آلات الزراعة كالمحراث والفأس والمنجل وغيرها فانا نجد انها هى التى كانت تسـتعمل من قبل عند آبائهم واجدادهم واذا كان الزراع لم يغيروا شيئا من

طرق زرعهم ، ولا استبدلوا بآلاتها القديمة آلات جديدة فانهم كذلك يستغلون أرضهم بأصناف معدودة محدودة من الزروع هى ما ورثوه عن أسلافهم .

واذا أردت أن تحصى الزروع الأساسية التى تقوم عليها الثروة الزراعية فى بلادنا فانك تراها لا تكاد تزيد على القطن والقمح والذرة والأرز والقصب وغيرها مما كان معروفا فى عصر محمد على واذا أنت رأيت شيئا من الزروع غير ذلك مثل الخضروات فان ذلك يكون فى الفلتة والندرة .

ومالحق الزارع من الجهل فى كيفية الزرع ، وعدم معرفته لاصناف أخرى اذا زرعها درّت عليه الخير ـ لحقه مثله فى عدم معرفة استغلال ما فى يده فهو ـ مثلا ـ لا يعرف شيئا عن منتجات اللبن مثل السمن والجبن الا ما عرفه من قبل ، فامرأته تحلب لبن ماشية فى ذلك الاناء الفخار العتيق وتتركه أياما تبلغ الثلاثة ثم تكشط ما يتجمد على سطحه وهو المعروف (بالقشطة) أو تمخضه فى قربة لتخرج منه الزبد واللبن الخاثر ويعرف عندهم (بالرائب) فتصنع منه الجبن وكل ذلك بطرق قديمة عقيمة .

ولقد كان عاقبة ذلك كله ان ساءت حال الفلاح المصرى فصار فى ساقة زراع الأمم الأوربية جهلا وفقرا ، وأصبح من البؤس بحيث لايظن احد انه هو الفلاح المصرى ذوالتاريخ المجيد وصاحب هذه الأرض التى يضرب بها المثل : فى جمال موقعها ، وخصب تربتها ، وعذب مائها ، وباتت

أرضه من الاهمال ، وما عراها من عدم العناية بها فى حالة ، نقصت منها غلتها وقلت ثمرتها .

ولم يقف أمر زارعنا البائس — عند ذلك ، فانك لو اختبرته لتقف منه على ما يعرف من علل وعاهات زرعه — ألفيته لا يدرى من أمرها شيئا ، وتجده اذا حاقت بزراعته آفة من آفات الزراعة لا يستطيع علاجها ويدع الأمر فيها لله — وما دام من الله فليصبر عليه — وأنى له أن يعالج هذه الآفات ، وهو لا يعرف أين مأتاها ولا كيف يكافحها .

ويمتد هذا الجهل الى ما يصيب ماشيته من أمراض فانه لا يعرف من أدوية العلل التى تعترى ماشيته الا (الكى والحزم) فاذا لم يتم شفاؤها باحدى هاتين الوسيلتين — كان دواؤها الناجع سكين الجزار .. وكم من ضحايا لهذه السكين تذهب كل يوم بالآلاف من الماشية ظلما وجهلاً .

ولعل قائلا يقول : أين قولك هذا مما نجده عند بعض الزراع من آلات الزراعة المستحدثة كالمحراث الذى يجرى بالبنزين ليحرث الأرض وماكينة الدراسة بدل النورج — وأنا أقول ان هذا نادر جدا لا يوجد الا عند كبار الزراع والنادر لا حكم له على أن ذلك لا يعدو حرث الأرض — أما كيفية الزراعة وأصناف الزروع فهى هى ولا تزال الكثرة الكبيرة فى القرى يدرسون قمحهم بواسطة هذه الآلة العتيقة وهى النورج .

وإذا سأل سائل عن عمل رجال وزارة الزراعة المنبثين في الأقاليم – أجبته بأن أعمالهم لا يراها الزراع بل هى على مكاتبهم – وقد كنا نود أن يجد الزراع أولئك الموظفين يرشدونهم الى ما ينفعهم فى حياتهم الزراعية ويدلونهم على انجع الطرق التى وصلوا اليها بعلمهم حتى يستطيعوا أن يخرجوا كنوز أرضهم بطرائق العلم الحديثة .

وحبذا لو عمدت وزارة الزراعة الى عمل حقول زراعية – ولو فى بعض القرى – تزرع فيها الأرض على أحدث الوسائل العلمية العصرية فان ذلك يكون انجع الوسائل لنفع الزراع لأن القدوة والتقليد والمحاكاة من طبع الانسان وبخاصة الزراع ؟

كنا نود ذلك ولكن أهل القرى لا يكادون يرون أحدا من رجال وزارة الزراعة بينهم اللهم الا فى زمن ابادة دودة القطن وهم فى غالب الأمر لا يجدون منهم – حينئذ – مساعدة على مكافحة هذا البلاء وانما يرونهم لكى يسوقوهم الى أبواب المحاكم لأنهم بزعمهم مقصرون فى المكافحة وبذلك يكون البلاء بلاءين .

هذه هى حياة القرى الزراعية اليوم ولا يفوتنا – قبل نختم هذه الكلمة – ان نشير الى أمر لابد من تقريره مادمنا بسبيل ذكر الحقائق ذلك انه – اذا كان قد حدث تغيير فى الأحوال الزراعية فى القرى فانما ذلك ينحصر فى تحسين وسائل الرى وتنظيم المناوبات بحيث أصبح الزراع

لا يخشــون على زروعهم من الظمأ ، ولا يجدون عناء في اروائها في مواعيد منتظمة ولكى نعطى كل ذى حق حقه فانا نقول ان أمر تنظيم الرى والمناوبات انما هو من عمل وزارة الأشغال .

وانا لنود ان نرى الزارع المصرى قد حسنت حالته فيعرف كيف يستغل أرضه بالاساليب الحديثة ويهتدى الى أصناف جديدة من الزروع ترد عليه من الغلة ما يسعده في هذه الحياة .

وكذلك نود ان يعرف كيف يداوى ماشيته وكيف ينتفع بما تدره عليه أرضه حتى يساير زميله الأوروبى في العمل ويشاركه في السعادة .

رمضان والعيد

يستقبل المسلمون من اهل القرى شهر رمضان من كل عام بالفرح والانشراح ، وقبل أن يشهدوه يتهيأون للقائه بتطهير نفوسهم ، واعداد ما يجب له في بيوتهم ، وترى فريقا منهم يعنون باحضار مقرئين يتلون كتاب الله في ليالى الشهر بطوله وهؤلاء المقرئون تتفــاوت مكانتهم بتفاوت الذين سيقرأون في بيوتهم فالأغنياء منهم يأتون بالمشهورين من القراء من الذين حسنت اصواتهم واتسقت نغماتهم لا من الذين يجيــدون تلاوة كتاب الله ترتيلا ، وهؤلاء القراء

لا يكلفون أن يقرأوا مقداراً محدداً فى كل ليلة ، ولا أن يقرأوا بترتيب السور كما يكون الشأن مع غيرهم وانما لهم أن يقرأوا ما يشاءون ، ومن أية سورة من القرآن يريدون ، وقد لا يزيد ما يقرأ القارىء منهم على نصف جزء أو ربع جزء فى كل ليلة .

أما القراء الذين يقرأون كتاب الله بغير تنغيم ، فهؤلاء يطلب منهم أن يقرأوا حصة معلومة قد تكون ثمن القرآن ، وقد تكون ربعه ، وقد تبلغ الثلث ، ولا يقرأ هذا المقدار الا بطريقة (الحدر) أى الكر .

وأجور الفقهاء تتفاوت كذلك بحسب اجادة القارىء فى حسن الصوت وتنويع النغم لا بمقـــدار موافقتها للترتيل الشرعى ، فقد يقرأ قارىء ما عليه ـ يرتله ترتيلا ـ ولا يأخذ أجرا على ما قرأ أكثر من نصف جنيه أو جنيه عن الشهر كله ـ وقد يبلغ ما يأخذ من يقرأ بالتنغم ولا يؤدى حق التلاوة (خمسين جنيها) أو مئة جنيه أجرا على ما يقرأ وهو لا يقرأ فى الشهر كله أكثر من ثمن القرآن ـ كأن كتاب الله لا يقدر بحقه وقدره ولكن يؤخذ بمقدار حسن صوت القارىء وأنغامه .

وتبدو القرى فى شهر رمضان فى مظهر بهيج فترى أهلها بعـد ما يؤدون عملهم فى الزرع يذهب بعضهم الى المساجد قبل العصر ليؤدوا ما فرض عليهم من صلاة ثم يستمعوا دروس الفقه والوعظ ولا يزالون كذلك حتى اذا

دنا وقت الغروب انقلبوا الى بيوتهم للافطار ثم يعودون الى المساجد لصلاة المغرب ، وبعد اداء فرض العشاء والتراويح ينتشرون بين أرجاء القرية للتزاور يسعى بعضهم الى بعض ولا يقف تزاورهم عند أهل قريتهم ، بل يمتد الى القرى المجاورة لهم ، ويظل هذا التزاور الى وقت السحور ولا يسأمون من تكرار الزيارة ، ذلك بأنهم يعدون هذا الشهر موسما لتزاورهم وتوادهم ، ولأنهم طوال العام يكونون مشغولين بأعمالهم لا يكاد يزور بعضهم بعضا الا نادراً وهذه الزيارات لا يقوم بها الا الطبقة الغنية والمتوسطة فى القرى .

وتنار طرق القرية وشوارعها فى هذا الشهر بما يضع الساهرون من المصابيح (الفوانيس) أمام بيوتهم فيسهل السير فيها بعد أن تظل طول العام فى ظلام دامس .

ومن أهل القرية من يتناول طعام الفطور فى مضايفهم أو أمام بيوتهم ليفطر معهم من يكون غريباً عن قريتهم من الضيفان أو أبناء السبيل — وهذه الأماكن فى القرى تغنى الغريب عن المطاعم والفنادق العامة بالمدن — ولا يباع الطعام فى القرى وكذلك لا يأخذ اهلها عن النوم اجرا .

ولا يزال كثير من القراء يتبعون سنن من قبلهم فيؤذنون على سطوح بيوت من يسهرون عندهم بأدعية وتوسلات بعد قراءة ما عليهم فى هذه البيوت ثم ينزلون لتناول السحور مع اصحابها وكذلك يفطرون .

وهم يحترمون شهر الصوم فلا يأتون فيه بمنكر

ويجعلون الصوم جنة تعصمهم من اقتراف الذنوب فاذا هم أحدهم بارتكاب سيئة أو جرى بينه وبين غيره من الأمر ما يدعو الى خلاف استغفر ربه وأناب ويقول : «انى صائم» كما أمر الدين ومعنى ذلك انه معتصم بدينه لا يخرج منه ولا يميل عنــه .

ويبلغ ببعضهم الأمر الى أن يتحــرجوا حتى من لغو الحديث ، ويصوم أطفالهم حتى من هم فى ســن العاشرة ولا نكاد نجد بينهم أحدا مفطرا .

وترى أكثرهم يحمـلون المسابح يدعون الله عليهـــا ويسبحون ، وليست هــذه المسابح من التى قال فيها الشاعر :

سبح تدار على الأصـــابع خدعة
والقصد منها الكذب والتدليس
عرفوا الطريق الى الضلال فأوغلوا
فيــه ويلعن بينهم ابليس

ومن عاداتهم الطيبة أنهم يصلون أرحامهم قبل صومهم وبعد الانتهاء منه فيرسلون بالهــدايا الى ذوى قرباهم فى اليوم الأخير من شهر شعبان ، ويسمون ما يرسلونه الى بناتهم وأخواتهم المتزوجات (بالشك) [1] ، أما هدية اليوم الأخير من شهر رمضان فيسمونها (العيد) ويفعلون مثل ذلك فى يوم وقفة عيد الأضحى ، وكل خاطب يرسل مثل

---

(1) يسمى آخر يوم فى شعبان بيوم الشك .

هذه الهدايا الى خطيبته ، وهذه الهدايا يكون اكثرها من الأرز والسكر وقد يكون فيها فاكهة ، ويزيدون على الأرز والسكر فى هدية عيد الفطر شيئا من (الفطرة) والكعك .

وتطلق الفطرة عندهم على (يميش) العيد من تمر وبندق وجوز وما اليها ، والفقراء منهم يكتفون بالتمر والخروب .

والخاطبون يرسلون كذلك مع هـذه الهدايا شيئا من الكسوة ، وتحمل هذه الهدايا على رءوس البنات والنساء فيسرن بها جزلات فرحات يتغنين ويزغردن .

ولأن القرى لا يوجد بها مدافع تهزهم بدويها لتنبئهم بمواعيد الافطار والسحور والامساك ـ كما يوجد فى المدن والذين يحملون الساعات منهم قليلون ـ ترى الأطفـال الصغار يذهبون كل يوم الى المسجد قبل الغروب ويظلون امامه يرتقبون اذان المغرب حتى اذا اذن له انطلقـوا الى بيوتهم يهرعون صائحين بهذه العبارة : (يا صـايم افطر المغرب ادّن) ، وقد اتخـذ الأطفال هذا الأمر موسما لسرورهم ومرحهم يلهون فيه ويلعبون كل عام .

واذا كان الرجال والنسـاء يشـق عليهم فراق شهر رمضان كأنه ضيف عزيز عليهم يرحل عنهم ، فان هؤلاء الأطفال يحزنون عليه كذلك ، ويبدو حزنهم فيما يصنعون قبل غروب اليوم الأخير من شهر رمضان اذ يصعدون فى سطوح منازلهم ويضربون على بعض الأوانى النحاسية بعصا ويصيحون بكلام يودعون به رمضان كأنه رجل تتخطفه من

بينهم يد الزمن ، ومن هذا الكلام قولهم : يا رمضان يا أبن الحجة يا ميت على المخدة ــ يا رمضان يا أبن عيشة يا ميت عالعريشة .

ويستيقظ الذين لا يسهرون لتناول طعام السحور على صوت (المسحّر) الذى يطوف بالبيوت ينقر على طبلته متغنيا بكلام فيه دعاء ومدح فى النبى عليه السلام .

وما حفظناه من كلامهم الموزون هذه الأبيات :

يا دليل الأكل يا حادى الصينية
قم وسلم لى على الجبنة الطرية
قم وسلم لى على العيش المحمر
والشوربة والأورمة والمعمر
يا دليل الأكل ، أكل الوز ماله
استيه بالخل يظهر لك جماله
وديه للفران واقعد قباله
احسن الفران تكون عينه ردية
وان عصيك الوز ادبح ديك رومى
وعلق الحلة وقل البنت قومى
واحشى الكانون حطب تركى ورومى ... الخ .

وفى الليالى الأخيرة من شهر رمضان يودع هؤلاء المسحرون رمضان كما يودعه الذين يؤذنون من الفقهاء .

واجرة هؤلاء (المسحراتية) على عملهم طوال شهر

رمضان يأخذونها من الصائمين يوم العيد ولا تكون من القروش انما تكون من الكعك والفطرة .

ومن عادات أهل القرى انهم يبالغون فى صنع الكعك - وهذه العادة قد تمكنت منهم كما تمكنت من أهل مصر جميعا فلا يستطيع أحد أن يصرفهم عنها مهما تبين من ضررها ، واكثر ما يذهب من غير نفع فى سبيلها .

ولا يخلو بيت فى العيد من خبز القمح فيأكله الفقير كما يأكله الغنى سواء بسواء !

وقد يعجب القارىء من هذا القول ! ولكن لا عجب فان أهل القرى جميعا انما يقوم غذاؤهم طوال عامهم من حب الذرة وحده ولا يتناولون خبز القمح الا فى المواسم والأعياد والأفراح أو عندما يحل عليهم ضيف عزيز عندهم ، ويكثرون من اللحم فى أيام العيد لأنهم لا يأكلونه كذلك فى غير المواسم الا فى الفلتة والندرة ، ومن أجل ذلك ترى القصابين يكثرون من ذبح الماشية والغنم فى اليوم الأخير من شهر رمضان وكأن العيد عندهم لا يتم الا بالكعك والفطرة واللحم .

وفى ليلة العيد يذهب الرجال وبين أيديهم (فوانيسهم) لزيارة القبور وقراءة الفاتحة لموتاهم ثم يعودون ، وكذلك يذهبون اليها بعد صلاة العيد .

ولا بد من لبس الجديد وخصوصا للصغار منهم حتى يرى بعضهم أن من المهانة أن يظهر فى يوم العيد بغير لباس جديد ، وعبارات المعايدة عندهم - كما بينا فيما مضى -

ان يقال للعزب : (كل سنة وانت طيب والسنة دى فى حضنك العروسة) ، وللمتزوج : (كل سنة وانت طيب والسنة دى على منى) – اى أنهم يتمنون للأول الزواج – وليس بشيء غيره أهم منه فى القرى – وللثانى أن يحج بيت الله ، وبعضهم يقول فى تهنئته للمتزوج : (والسنة دى على أبو ابراهيم) اى محمد صلوات الله عليه ، وهم فى ذلك لا يفرقون بين زيارة المدينة التى ليست هى فرض وبين الحج فى مكة وهو المفروض – ويقولون لمن له أولاد فى سن الزواج : كل سنة وانت طيب والسنة دى فرحان بزواج الأولاد .

ولا يمنع العيد أهل القرى من مزاولة أعمالهم ، فتجد اكثرهم ينقلبون الى حقولهم بعد ان يقضوا ضحوة العيد فى التزاور والمعايدة .

أما الأطفال فيذهبون الى الأماكن الخالية حول القرية حيث يلهون بالأراجيح ويلعبون .

وبعض أهل القرى لا يكون لهم عيد وهم الذين قد مات لهم ميت ولما يمر على موته أحد العيدين فلايشترون الفطرة ، ولا يصنعون الكعك ، وما يصنع منه فى بيوتهم انما يكون أجرة لمن يقرأ من الفقهاء على قبور موتاهم ويسمون هذه الأجرة (الرحمة) ولا يلبسون الجديد ، وتراهم يجلسون امام بيوتهم او فى خيام تقام ليلة العيد وضحوة يومه ليتلقوا تعازى المعزين من اهل القرية أو من غيرها (لأخذ خاطرهم) .

ولا يكون العيد فى القرى ثلاثة أيام كما هو فى المدن وفى الدواوين ، وانما هو يوم واحد ، فاذا انقضى انصرف كل قروى الى عمله موفور القوة منشرح الصدر راضيا .

التجنيد

لا يكره أهل القرى شيئا كما يكرهون التجنيد وحمل السلاح له ، فقد ملأوا قلوبهم ببغضه وطووا احناء صدورهم على عداوته يستوى فى ذلك الرجال والنساء والشبان والأطفال .

واذا دعى أحدهم الى التجنيد احس كأن مصيبة حاقت به ، وخيم الحزن والبلاء عليه وعلى آله ، وشمل هذا البلاء كل عشيرته وأقاربه وتراهم يبذلون جهدهم فى التخلص منها ، والبعد عنها ، ولا يفتأون يسعون الى ذلك ما استطاعوا الى السعى سبيلا ، ولهم فى هذا الأمر حيل غريبة ووسائل عجيبة .

ومن هذه الوسائل أن يعمد من يطالب ابنه الى الجندية فيرسل لحيته ولا يغسل وجهه ويلبس أثوابا بالية لكى يبدو اشعث اغبر ، ولا يرى فى مشيته الا محنى الظهر يتوكأ على عصا كأنه قد بلغ من الكبر عتيا وعجز عن العمل حتى اذا قدم ولده للفحص عن قوته وصحة جسمه بدا هذا الوالد فى صورته المزيفة التى تستدر العطف واذا ما سئل عن سنه ارتفع بها الى ما بعد الستين ــ وذلك لكى

يتركوا له ولده يعمل له وقد لا تكون هذه السن قد تخطت الأربعين .

ومنهم من يطلق زوجه ليدعوا لها ولدها يعولها ومنهم من يذهب الى علماء الروحانى الذين تحدثنا عنهم ليكتب له (تميمة) يشدها على عضده ، أو يكتب له حرفين على جبهته أو يلقنه (تعويذة) يهمهم بها ـ حتى اذا بصر به أحد ممن سيختبرون صحته حسبه (بزعمهم) وحشا فاتكا فينفر منه ، ويبعد عنه ، ويأمر باخلاء سبيله .

ولا يذر فقهاء القرى ورجال التصوف فيها مثل هذه الفرصة تمر بغير أن يهتبلوها ليستغلوها ، ويحوروا بنفعها، فيسرع أحد الفقهاء الى أهل المطلوب للتجنيد ويوهمهم ان (عدية يس) تنقذ ابنهم ، وهذه العدية ، هى تلاوة سورة يس فى خلوة احدى وأربعين مرة مع اطلاق البخور. ويزعم فقهاء القرى ان هذه (العدية) لها فى كل شأن من شئون الحياة أثر وفيها منافع كثيرة وفضائل جليلة ويؤيدون مزاعمهم بقول يرددونه وهو (يس لما قرئت له ...) ويرفعون هذا القول الى النبى (ص) وما نظن ان له أصلا .

أما رجال الصوفية فيدعون ان هذا (البلاء) لا يدفعه الا اقامة (ليلة سلطانى) لأهل الله أو بنذر لأحد الأولياء .

ولا يكون النذر فى هذا الأمر الخطير الا لكبار الأولياء أصحاب (السر الباتع) مثل البدوى أو الدسوقى أو الرفاعى أو الجيلانى أو الست الطاهرة .

ولهم وسائل غير ذلك كثيرة لو ذهبنا نتتبعهـا لطال بنا الحديث .

ولو أنت ذهبت الى احد أماكن الحكومة يوم أن يدعى اليها المجندون (للفـرز) لذهب بك العجب كل مذهب اذ ترى أمامه جموعا حاشدة من الرجال والنساء والولدان الذين يذهبون وراء المجندين من الأقارب والأصدقاء ويعدون ذلك من المجاملة الواجبة عليهم بعضهم لبعض ، واذا ألقيت سمعك اليهم وهم وقوف يرتقبون بلهف ما يتم فى أمر قريبهم أو صديقهم لسـمعت هذا ينادى (يا سـيد) ويضغط على تشديد الياء كأنه يعتصرها ليستنبط سرها أو كأنه يدعوه ليأتى على عجل وكلمة السيد اذا أطلقت عند العامة والصـوفية لا تنصرف الا الى أحمد البدوى وذاك يصيح (يا سيدى ابراهيم) وذلك يهتف (يا لست الطاهرة) أى السيدة زينب وهكذا وكل من يعرف اسم واحد من أصحاب القباب العالية يناديه ويستغيث به ــ ولا تكاد تسمع منهم من يذكر الله أو يدعوه فاذا لم يقبل المطلوب للتجنيد وخلى سبيله رأيته يعدو فى خروجه عدو الظبى فى هفوه[1] .

فيتلقاه من ينتظـرونه كما يتلقى المحب حبيبه بعد هجر طويل فيحتضنه هذا ويقبله ذاك ، ويعانقه ذاك وتسمع منهم ضجيج الفرح وزغاريد النساء ثم ينقلبون

(١) مر الظبى يهفو اذا خف على الأرض واشتد عدوه .

به الى القرية مسرورين فرحين أن من الله عليهم ووقى قريبهم شر ما كان سيحيق به .

وهنا يبدو فقهاء القرية ومتصوفتها ، ليأخذوا أجورهم، وليستوفوا نذورهم .

اما اذا جند الشاب وعرف انه سيؤخذ الى حمل السلاح فهناك الطامة الكبرى والبلاء المقيم والحزن الدائم تنشق الجيوب وتطلم الخدود وتقام المناحات ويعلو العجيج والصراخ ويعود أهله محزونين مخذولين فاذا بلغوا قريتهم أقاموا مأتما وسعى الناس اليهم يعزونهم عن مصيبتهم .

ولقد سمعت من شيوخ قريتى أنهم كانوا من قبل يتخلصون من الجندية بأن يعملوا على فقد احدى عينيهم فيضعون فيها شيئا من مسحوق (الملوخية الجافة) — وقد رأيت بعينى رأسى هؤلاء الذين فعلوا ذلك وشهدت منهم ثلاثة وكلهم عور .

وكأن أهل القرى قد أصابهم ذلك من استقرار عيشهم وطمأنينتهم فى بلادهم لا يروعهم شيء ولا يخيفهم أمر .

ومن أجل ذلك كانوا فى غير حاجة الى تقلد السلاح وحمل أثقال الدفاع — وما داموا فى كلأ الحكومة — فلا عليهم من امر الذود عن وطنهم الكبير الذى لا يعرفونه شيئا وانما وطنهم هى قريتهم . وقد تطاولت عليهم الأزمان وهم على ذلك حتى ذلك فهم جبلة وطبيعة .

واذا كان لكل انسان وطن يحميه ويدفع عنه ويبذل

كل ما يملك فى سبيل الذود عنه فقد استقر عند القروى أن وطنه الذى يفديه بماله ونفسه انما هو حقله وما يملك لا يعنيه بعد ذلك شيء ؟

والانسان كما يقولون (ابن عادته ومألوفه — كما هو ابن طبيعته ومزاجه) .

وما أظنهم يغيرون ما بهم ما داموا على ما هم فيه الآن من سوء حالتهم الاجتماعية والعلمية وما الى ذلك .

الأسواق

تقوم فى القرى أسواق للصفق والتجارة تجتمع فى كل أسبوع مرة باحدى القرى ما عدا ايام الجمع ، فتحمل اليها العروض التجارية بأنواعها ، ويساق اليها ما يراد بيعه من صامت وناطق .

وهذه الأسواق ولا ريب من أسباب رواج أهل القرى وتيسير أمورهم فيبيعون فيها ، ويشترون منها ، واكثر من يغشاها النساء ، فتحمل المرأة على رأسها شيئا مما فى بيتها مما تخرج الأرض من الذرة أو القمح أو الأرز ونحوها ومن محض لبن الماشية كالزبدة والجبن ، ومن الدواجن كالدجاج والأوز — فتبيعه ثم تشترى بثمنه ما تريد مما يحتاج اليه بيتها .

والمرأة القروية فى غالب الأمر هى التى تقوم على شئون البيت والمدبرة له ، واليها يرجع الأمر فيه ، وهن مقتصدات

أكثر من الرجال فلا يبسطن أيديهن الا للضرورة ، ولا ينفقن الا ما لا بد منه ، وكم من بيت أظلته السعادة ، وعاش في رغد من العيش بقيام امرأة عليه وتدبيرها اياه .

وهذه الأسواق تنقسم الى أقسام فللبزازين (باعة الأقمشة) قسم ، ولباعة الحبوب قسم ، وللجزارين قسم ، ولباعة البذور قسم ، ولباعة الفاكهة قسم . ولا يكون فيها ــ فى الغالب ــ الا الرخيص منها لأن الفاكهة التى تباع بثمن غال كالتفاح والكمثرى لا يعرفها القروى وقد ينقضى عمره ــ ولا يعرف لها مذاقا ــ ولباعة الحلوى قسم وللماشية قسم ــ وهلم جرا .

وكل من يدخل السوق ومعه شيء يبيعه لا بد أن يؤدى عليه ضريبة لصاحب السوق ــ فردا كان أو شركة يسمونها (الأرضية) ولا يفلت منها أحد .

والبيع والشراء فى هذه الأسواق لا تسير على تسعيرة معروفة وانما الأسعار تكون اجتهادية ، والكيل والميزان لا يكونان بالقسطاط المستقيم .

وأكثر ما يكون البلاء فى بيع الماشية ولا سيما الجاموس الذى يقتنيه كل قروى ولا يخلو بيت منه ــ فترى الختل والخداع والاحتيال كل ذلك يمثله تجار الماشية ــ وهؤلاء التجار لا يقودون الى السوق جاموسة ــ اذا كانت حلوبا ــ الا (مصراة)[1] فيبدو ضرعها منتفخا يكاد يتمزق من كثرة

---

(١) المصراة هى الناقة أو البقرة أو الجاموسة ــ يجمع لبنها فى ضرعها ويحبس أياما بغير حلب لايهام المشترى أنها غزيرة اللبن .

ما اختزن فيه من اللبن وذلك ليوهموا الشارى انها غزيرة اللبن ـ وعندما يقف عليه أحد يريد شراءها يفيض فى بيان محاسنها ـ من أنها تثير الأرض ، وتسقى الحرث ـ وتدور فى كل مدار ويتم وصفه بأن (يومها) بعشرة قروش أو بخمسة عشر قرشا أو بعشرين قرشا ـ ومعنى اليوم عندهم ان اللبن الذى يحلب منها فى الصباح وفى المساء . حينما يمخض يأتى من الزبد بما يبلغ ثمنه هذا المقدار .

ولا يتم بيع الماشية الا بواسطة سمسار ، وليس لهذا السمسار من عمل الا تزيين ما يباع وأن يضفى عليه أجمل الصفات ، ولا يفتأ يعمل على خداع القروى المسكين حتى يوقعه فى حبائله ، وله على ذلك اجر يأخذه من البائع والشارى على السواء

وهذه المجتمعات الكبيرة لا يغفل عنها الدجاجلة ، بل لا بد أن يستغلوها ، ومن أجل ذلك ترى فى كل سوق رجلا من علماء الروحانى قد جلس ونثر على منديله حفنة من الرمل واخذ يخط فيها بسبابته ، ثم وضع بجانبه طائفة من كتب الروحانى ككتاب أبى معشر الفلكى وشمس المعارف الكبرى للبونى والسر الربانى وغيرها ليلقى فى روع القرويين انه من كبار علماء الروحانى ، وترى القرويين يلتفون حوله جالسين القرفصاء وعيونهم فى خطوط رمله يستنبئونه ما خفى عليهم من عالم الغيب كأن الغيب كله قد اختبأ فى هذه الخطوط . وتراه لا يتكلم الا بلهجة تشبه لهجة أهل

المغرب وتونس والجزائر فيلوى لسانه ويعطش الجيم ليدل على أنه مغربى ، وقد وقر فى أذهان العامة أن أهل المغرب هم أساتذة علم الروحانى الذين ينقلون (الحائط من مكانها) وفقهاء القرى الذين اتخذوا الروحانى صناعة لهم يزعمون أنهم تلقوا هذا العلم عن أهل المغرب ودرسوه فى كتبهم .

وكذلك ينتهز هذه الفرصة لصوص الحبوب واكثرهم من النساء ولهن حيل غريبة فى سلب الأموال ، ولولا خشية الاطالة لأثبتنا على شىء منها .

ولا تكاد تنقضى سوق الا عن جرائم من السلب يكون ضحيتها هؤلاء السذج فيذهب فيها ما يكون قد أعدوه لقضاء حاجاتهم أو ثمن ما باعوه من أشيائهم أو مواشيهم .

وانا لنعلم علما ليس بالظن أن بعضا من عمد القرى ومشايخ الخفراء فيها يواطئون هؤلاء اللصوص على اجرامهم، ويدعونهم يرتكبون جرائمهم بلا خوف فى مقابل جعل لهم قد يقدر بجزء مما يسرقون ــ اما الربع أو النصف ! وقد حدثناك عن شىء من ذلك من قبل .

وتظل السوق قائمة من الصباح الى ما بعد العصر ثم تنفض وينقلب كل من فيها الى بلادهم بعد أن يربح فيها من يربح ويخسر من يخسر .

القبـــانى

ان تسمية القبانى مأخوذة ولا جرم من لفظ (القبان)[1] وهو فى اللغة القسطاس الأمين ، ذلك بأنه هو الرجل الذى ينصب نفسه ليزن للناس بالقسطاس المستقيم فلا يطغى ولا يخسر ، وهو يعمل أكثر ما يعمل فى القرى فى وزن ما تخرج الأرض من زرع . ونحن نتحدث هنا عن وزنه القطن ذلك الذى لا يخلو منه بيت — وقد لا يدخل القبانى منزل الزارع طول العام الا يوم وزن قطنه .

ولو أن وزن القطن يجرى بغير ظلم لما عرضنا له ، ولكنه من الأمور التى تستغل فيها سذاجة الفلاح المسكين فيذهب عن طريقه شىء كثير من ماله .

لقد اصطلحوا على أن يكون وزن القنطار من القطن خمسة عشر رطلا وثلاثمئة رطل ، ولست ادرى لم جعلوه كذلك على حين أن وزن القنطار فى العرف هو مئة رطل ! واذا كانوا قد جعلوا هذه الزيادة لأن فيه بذورا فهل روعيت الدقة فى عمل حساب القنطار من القطن فتبين أن كل مئة رطل من (الشعر) تكون فى ٣١٥ رطلا .

---

(١) فسر المعجم الوسيط (القبان) بأنه الميزان ذو الذراع الطويل — والحفيظ الأمين يقال : فلان قبان على فلان : أمين عليه يحاميه ويتتبع أمره و (القبانى) الوزان بالقبان .

واذا كانت هذه الدقة قد روعيت فلماذا يباع القنطار من القطن وهو يحوى (شعرا وبذورا) بثمن الشعر فقط ويترك ثمن البذرة ، هذا ما لا نعرفه ولا يعرفه أهل القرى . وقديكون كل ذلك قد عمل حسابه فلنرجع الى مانحن بصدده

يأتى تاجر القطن الى القرية فيقصد أول ما يقصد الى القبانى لأنه كما يقولون مفتاح القرية ـ من ناحية التجارة ومن هنا يزداد عمله فبعد ما كان وزانا للقطن أصبح كذلك وسيطا (سمسارا) بين البائع والمشترى وله على هذا العمل أجر غير أجر وزنه يذهب فيه من ثمن القطن نصيب .

والقبانى لا يعنيه من أمر الفلاح شىء ما دام يحصل على رغائبه ، ويصل الى ما يرجوه ، وبعد ما ينصب شراك الخديعة والمكر للفلاح لكى يوقعه فيقبل أن يبيع قطنه بالثمن البخس الذى يريده التاجر يجعل الفلاح كذلك ان ينزل على شروط التاجر بأن تكون (القبانة) اى أجر الوزن (والمشال) اى أجر نقل أكياس القطن من القرية الى المحطة التى يصدر منها القطن او السفينة التى تحمله فى النهر على حساب الفلاح ـ وان لم يقبل الفلاح ذلك ينقص من ثمن القنطار عشرة قروش فى نظير ذلك ـ هذا غير ماينقص بخداع القبانى وحيله ، وكل ذلك لايكفى التاجر بل لابد أن يترك من وزن كل كيس رطلا يسمى (التسفيرة) اى الذى ينقص فى أثناء السفر ـ (والعيار) ولا يقل عن ثمانية أرطال ـ

والعيار هذا هو فى نظير وزن الكيس الفارغ ! والحبل أى حبـل عدة القبانة على حين أن وزنهمـا معاً لا يزيد فى الحقيقة على ثلاثة أرطال هذا اذا كان الفلاح ملزما بذلك ـ وبهذا يذهب فى كل كيس خمسة أرطال ينقصها القبانى من الفلاح ظلما . وبعد الفراغ من وزن القطن يعمل حسابه واذا كان فى الوزن كسور فى الرطل فانها لا تحسب مهما تكن اتباعا المثل المعروف (المكسورة على الفلاح) !

وقبل أن يعطى التاجر ما للفلاح من ثمن قطنه يستبقى معه أجر القبانى مما وزن ولا تقل أجرة وزن القنطار عن خمسة قروش وقد تبلغ عشرة !

واذا حسبنا ما يذهب من ثمن القنطار من القطن عند بيعه بخديعة القبانى وما يذهب فى الميزان من التسفيرة والعيار والمكسورة ـ هذا اذا كان الميزان مضبوطا وهذا لا يكون الا فى النادر ـ ثم أجرة القبانى ومشال القطن ـ وكل هذا يذهب من الفلاح ضياعا . وجدنا أن الفلاح يخسر فى كل قنطار شيئا كثيرا .

وقد تكون هذه البلية أخف من بلية الذين يزرعون عند كبار الزراع بالايجار أو المشاركة فان القبانى عندما يزن قطن هذا الفلاح ليودع مخزن صاحب الأرض حتى يباع ويعرف حسابه ، لا يحسب الفلاح مقدار وزن قطنه كاملا بل لا بد من نقص يسمونه (عجز المخزن) فيترك لكل مئة رطل خمسة أرطال ، فاذا بقى المخزون سالما ولم

تمتد له يد بالتحيف أو الاختلاس فما يظهر فيه من الزيادة لا يرد الى أصحابه وانما يذهب الى جيب صاحب الملك خالصا .

واذا أدرك الزارع نحس الطالع وامتدت الأيدى الى هذا المخزون وظهر فيه نقص عند بيعه كان ما ينقص كذلك من حسابه ، فالخسارة على كل حال واقعة بهم ، أما الربح فليس له فيه شيء .

هذه بعض أعمال الذين يزنون القطن فى القرى — وقس عليه ما يصنعونه فى وزن المحاصيل الأخرى كالأرز والذرة وغيرهما .

ومن الغريب أنك ترى كثيرا من هذه الطائفة جهلاء لا يعرفون من علم الحساب شيئا — وعلى أن الحكومة قد قضت بأن هذه الحرفة لا تزاول الا بترخيص رسمى ، فان أكثرهم يعمل جهارا نهارا بغير ترخيص ولا يخشى شيئا .

واذا قدر وضبط واحد من هؤلاء الشطار — ولا يكون ذلك الا عندما يختلف مع العمدة — وسيق للمحاكمة ، فانه لا يحكم عليه بأكثر من عشرين قرشا ، وهذا عقاب يستسهله لصوص القبانية ، لأن هذه الغرامة لا تساوى ما يأخذه من قنطار واحد ! ولولا خشية التطويل لأتينا بأشياء كثيرة مما تعمله هذه الطائفة — فحسبنا ما بينا من أعمالها .

الصراف

منذ بضع سنين كنت جالساً فى أحد الأندية بمدينة المنصورة وكان بالقرب منى جماعة جلسوا الى خوان آخر يتحدثون فى شؤون لهم ، وكنت وقتئذ أفكر فى شأن لى — ولكل امرىء فى الحياة شأن يغنيه .

وبينما انا فى تفكيرى اذ لقفت اذنى كلمة من أحدهم فتركت ما أنا فيه من تفكير وأخذت أستمع الى ما يقولون أما هذه الكلمة فهى « تعال ازوجك بلدة » .

استرعت سمعى هذه الكلمة ، اذ كيف يتزوج انسان ببلدة ؟ وتبين لى من حديثهم أن بينهم شابا فارغاً من العمل وان الذى يدعوه الى تزوج بلدة هو أحد رؤساء الأقلام بالمديرية ، واسمه محمد افندى عثمان رحمه الله — وقد عرفت اسمه من خدم النادى — وأخذ يبين له طريق الوصول الى هذا الزواج قال هذا الشاب وكيف لى أن أحصل على هذا المطلب السعيد ؟ فقال له رئيس القلم أن الطريق الى ذلك أن تدرس لائحة الصيارف فأجابه الشاب — وانى لى بها وهى محجوبة عن الناس عند أهلها وهم اخواننا الأقباط فقال له اطمئن فقد تطوعت لتدريس هذه اللائحة فى دار جمعية كذا فما عليك الا أن تحضر هذه الدروس — وهى فى كل ليلة — لسماع ما ألقيه ثم بعد ذلك تتقدم لهذه الوظيفة .

ولم أعجب لشيء مما قاله هذا المحدث كعجبى من قوله « تعال أزوجك بلدة » ذلك بأنه قد نطق بالحق فان صراف القرية هو المجدود الوحيد فيها ، والمنتفع بخيراتها .

يعمل الصراف فى جباية الضرائب من الأهلين ويسميه أهل القرى « المعلم » بكسر الميم الأولى وهو يصل من سبيل وظيفته الى كل عمل فى القرية ويده تلعب فى كل شيء فيها ــ وهو ومأذون الشرع جناحا العمدة فى أعماله ، ولكنه لمكره ودهائه ينفرد بأمور كثيرة لا يصل العمدة ولاغيره الى كنهها .

له « عادة » كعادة المرتزقة من الصوفية الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ــ وهذه العادة يؤديها كل من فى القرى جميعا اذ أنهم يؤدون ضرائب على أرضهم وان كانت « قيراطا واحدا » وتكون هذه العادة من السمن والجبن وغيرهما حتى حطب القطن والفريك وهو القمح الأخضر المشوى . وهذه العادة لا ريب تنفعه فى معيشته وتغنيه عن كثير مما يطلب فى الحياة .

وكثير من الصيارفة يتفقون مع تجار البذور والسماد فى القرى لقاء جعل لهم يأخذونه منهم ويكون عمله أن يحول دون اتصال الأهالى ببنك التسليف لكى يمدهم بما يحتاجون من البذور وبذلك يصبح أهل القرى فريسة لهؤلاء التجار الشطار فاذا كان ثمن (الجوال) من السماد

فى بنك التسليف مئة قرش اخذه الزارع المسكين بمئتين او ثلاثمئة وكذلك الأمر فى البذور .

ولهذا الذى يملأ به يديه كل يوم من الناس لا يلبث أن يكون من كبار من يقرضون أهلها ، ولا يقل فائدة قروضه عن ٣٠ ٪ ولكى يحكم أمره ولا يدع أحدا يغضب عليه ، يوهم من يقرضهم أن هذا المال الذى يقرضه ليس ماله ، وانه لا يأتى به لهم الا بشق الأنفس وانه دائما يراعى مصلحتهم في أن يجعل الفائدة ٣٠ ٪ لأن صاحب المال يريد أن يأخذ عن كل جنيه خمسة قروش فى كل شهر ومن دهائه البالغ أن يطلب من الفلاح أن يكون تسليفه اياه سرا لايعلم به أحد .

وبذلك تصبح القرية (مستعمرة له) ، ويصير (المعلم) مهيمنا على كل مصالح القرية ، ولا تنقضى بضع سنين حتى يكون من الأثرياء .

وفى ابان تعديل أجور الخفر كل عام — وهى التى تكلمنا من قبل عنها يهرع الناس اليه يرجون منه أن يسعى فى تخفيف ما عليهم لأنه من كبار اعضاء اللجنة التى تفرض هذه الضريبة ولا يذهب هذا الرجاء بغير فائدة .

ولا ننس (قابلات القرى) (وحلاقى الصحة) فيها فانه لا يدعهم بغير أن يشاركهم فيما يأخذون من الناس فحينما تأتى اليه (القابلة) فى أول كل شهر حاملة دفترها بين يديها لكى تقيد فيه أسماء من ولدوا فى الشهر الماضى لانه هو المختص بذلك يحاسبها على ما أخذت من اهالى المولودين فيأخذ نصيبه منه .

وكذلك يأخذ من حلاق الصحـة عمن (يطعمهم) من الجدرى لأن حلاق الصحة هو المختص بذلك ومن العجيب أن بعض العمد لا يترك هذه القابلة المسكينة بغير أن ينال منها نصيبا . والقول فى أعمال صراف القرية يطول ونحن بما نكتب هنا لا نصور كل ما يقع فى القرى لأن ذلك يحتاج الى مجلدات .

طبيب المركز

لا يعجب القارىء الكريم اذا أنا ذكرت فى حديثى اليوم أنى لا أعرف ما هو عمل طبيب المركـز ولا ما هى فائدته للقرى والبلدان التى جعلوه طبيباً لها .

واذا كنت قد بينت من قبل أن أهالى القرى لايجدون لمعاون الزراعة بينهم أثراً ذا بال ، وانهم لايزالون يسيرون فى أحوالهم الزراعيـة على ما كان عليـه من قبـل آبؤهم وأجدادهم فانى أذكر اليوم كذلك أن اهل القرى لا يجدون لطبيب المركز فائدة لهم أو نفعا يأتى به اليهم بل قد يكون فى بعض الأحايين ضارا بهم .

ان حال القرية المصرية من الناحية الصحية هى كما بينا ، وكما يعترف كل من يلم بها أو يعيش فيهـا فهى أشبه حالا بالبادية التى لم تتصل بالمدينة ولم تنغمس فى الحضارة ، وأهلها لايزالون جهلاء لا يعرفون كيف يحافظون على صحة أجسامهم ، ولا من اية ناحية تأتيهم امراضهم ،

وهم لا يجدون أحدا يبصرهم بما يحفظ صحتهم ، أو يرشدهم الى ما فيه سلامتهم ، فأية فائدة اذن من هذا الذى جعلوه طبيباً لهم .

لقد كنا نود أن يكون طبيب، المركز ذا أثر صالح بعلمه فى القرى فنراه يعمل دائما على ما ينفع أهلها ويتعهدهم الفينة بعد الفينة بالارشادات الصحية ويبين لهم مايأخذون به لسلامة أجسامهم وما يدعون مما يضر بها ويظهر لهم مضار الماء الذى يشربون منه الذى هو أساس عللهم واصل أمراضهم ، ويهديهم الى الطريق الذى يصلح به هذا الماء واذا راى شيئا يرجع عليهم بما يصلح من شئونهم الاجتماعية أو الصحية سعى لدى أولى الأمر فى انبائهم به ويحقق آية الرحمة فى الطب فيسعف من ينتابه من المرضى ، أو تصيبه علة من الفقراء فيخفف ما به أو يذهب من آلامه .

كنا نود أن يفعل ذلك كله أو بعضه حتى يحس أهل القرى أن الحكومة قد جعلت لهم طبيبا يواسيهم ويقف بجانبهم ولكن السادة الأطباء قد تركوا ذلك كله وكانوا بين رجلين :

١ ــ رجل آثر الراحة فأمسك عن عمل أى شىء للقرى وأهلها .

٢ ــ ورجل جعل همه (نفسه) لا يسعى الا لها ، ولا يعمل الا من أجلها .

قد يقول بعضهم : مالك قد نسيت، عمل طبيب المركز

وهو كُثير ! فهو الذى يراقب الحالة الصحية العامة بالقرى فاذا الم بقرية مرض أو انتهابها وباء أسرع فى مخاطبة مصلحة الصحة لتتخــذ من وسائل التحوط ما يرفع عن النــاس مانزل بهم ! وانه عند أول دعوة من الادارة أو النيابة يخف معهم عندما تحدث جناية فى احــدى القرى فيفحص عن حالة المصاب ، ثم يقرر مايلزم له من علاج ، وهو عدا ذلك يراقب المولودين والمتوفين ونسبة عددهم ، وله اعمال غير ذلك كثيرة !

ونحن نجيب من يقول مثل هــذا القول اننا لم ننس هذه الأعمال ـ وسنتكلم عنها عما قليل .

ان قاعدة (الوقاية خير من العلاج) لا تسرى على القرية فانك تجــد الأمراض تفتك بأجسام أهلهــا حتى لا يكاد واحد منهم يخلو من مرض وهم لا يجــدون السبيل الى من يعالجهم أو يعمل على شفائهم ، وبسبب جهلهم ومانشأوا عليه يلتمسون الدواء عنــــد كل من يزعم انه يشفيهــم فيلقون بأنفسهم بين أيدى الدجالين الذين يقولون انهم خبيرون بعلم الروحانى مما تكلمنا عنه من قبــل فيحيق الضرر بهم وتؤكل أموالهم وهم فى ذلك غير ملومين لأنهــم لا يعرفون من الطب الا ما عرفه آباؤهم ـ وهذا الذى قد جعله العلمـ وأقامتهالحكومة ـ مداويا للأمراض لايرون له وجهــا ، واذا قدر لبعضهم ورآه الطبيب لا يعده مريضا ضعيفا بين يدى يرحمه ويعمل على تخفيف ما به ، ولكن

يجعله وسيلة لاستغلاله ، فيرهقه بالأجر ، ويثقله بأخذ ثمن الدواء مضاعفا ــ اذ يكون من صيدليته ــ وتظل القرية واهلها على ذلك حتى ينتابها مرض وبيل فيختطف زهرة شبابها ويتحيف الجم الغفير من اهلها ــ ومن ثم ترى القرية وجه الطبيب فيهجم بممرضيه على القرية واهلها ، وليتهم يأتون برحمتهم ، أو يعملون على راحتهم ــ ولانكون غالين اذا قلنا : أن ما يناله أهل القرى على ايدى الأطباء والممرضين الذين يحلون بقريتهم لأنكى وأشد مما ينالهم ، لو تركوا وشانهم ، يستشرى الداء فيهم ويحصد الموت ما يشاء منهم .

ولا نعرض هنا لما ياتيه الممرضون ، ولا لبيان ما يسلبون من اقارب المرضى لكى يعاملوا مرضاهم بالحسنى ، ولا نفصل القول فيما يقترفون فى سبيل ابتزاز الأموال لانه كثير .

وفى غير زمن الأمراض العامة ينال أهل القرى من الطبيب مالايمكن احصاؤه بيد انا نشير بايجاز الى شيء منه :

لو غرق واحد من اهل القرية وجاء الطبيب ورأى ان الغرق بالقضاء والقدر اصر على تشريح الجثة ، وقد يساعده القانون على ذلك فيتوسل اليه اهل الغريق لكى لا يمزق جثة غريقهم وحسبهم ما نزل بهم ــ وينتهى هذا التوسل الى (الوصول لنتيجته) .

واذا اراد أحد أن ينشىء مكانا للتجارة أو غيرها فلا تبدو صلاحية هذا المكان الا بعد ان يكون صاحبه (صاحب

ذوق !!) ، ولأن خفراء القرى (لا يعينون) فى أعمالهم الا بعد الكشف الطبى عليهم من طبيب المركز فان هذا الكشف لا بد أن يؤتى ثمرته . .

ولعل أسعد يوم عند الطبيب هو يوم وقوع شجار فى احدى القرى ويكون فى هذا الشجار جروح ! اذ يتسابق اليه المتشاجرون كل منهم يريد أن يكون الطبيب معه ، فالمعتدى عليهم يبغون أن يأخذوا منه شهادة بأن ما فيهم من جروح يستوجب العلاج أكثر من عشرين يوما لتكون القضية (جنحة) ذلك بأن العلاج اذا نقصت أيامه عن ذلك تكون القضية (مخالفة) يحكم فيها بالغرامة . أما المعتدون فيهرولون اليه لكى يجعل زمن العلاج أياما قليلة . وكثير من الأطباء يفتح بابه لهؤلاء وهؤلاء ، ثم يقرر بعد الاتفاق معهم جميعا ما يشاء .

واذا أبطأت الريح على بعض الأطباء أخذ سيارته ومضى بها الى القرى وعندما يحل بقرية يلازمه حلاق الصحة لأنه عامله فى القرية والذى اذا قصر فى احضار المرضى اليه ، أنزل مقته وغضبه عليه .

وهذا الحلاق هو الذى (يسوى) ما يكون بين الناس وبين الطبيب .

ويجعل الطبيب أول ما يراه فى القرية (مسجدها) فاذا وصل اليه ورآه على ما به أمر باغلاقه محافظة على الصحة ! حتى يصلحوا من شأنه ــ فيفزع أهل القرية جميعا لذلك لأن المسجد ليس فقط مكان عبادتهم ، وانما هو كذلك موضع قضاء (حاجتهم) ، وبيوت القرى ليست فيها

مراحيض وانما مراحيضـــها فى المسجد ـ وما يتلبثون فى التوسل اليه ليدع لهم مسجدهم مفتوحا ـ وكلما ازدادوا فى توسلهم أمعن هو فى التأبى عليهم . ومن ثم يظهر (دور) حلاق الصحة فيأخذ هذا على ناحية ويميل بذاك الى جهة ثم ينتهى الأمر برضا الطبيب ـ بما فيه (النصيب) .

ومايفعله بالمسجد يفعله بالمحال التجارية حتى المصرح بها اذ يقول : انها قد أصبحت غيرمستوفاة للشرائط الصحية .

واذا وجد أثناء تجواله بالقرية أحد القرويين ـ وكان لونه أصفر مثلا ـ وكل القـرويين صفر الوجـوه ! امر باستدعائه ليرسل الى (القشلة) وهى تطلق عند أهــل القرى على المستشفى ، وهذا الاسم يروعهم ويفزعهم ولو خير القروى بين أن يموت فى قريته ضربا ، وبين أن يذهب الى هذه (القشلة) لآثر الأولى ، وذلك لما عرفوه عن هذه المستشفيات من تعذيب من يؤمها ـ فيصرخ ويستغيث ، وهنا يتقدم حلاق الصحة الى هذا القروى ويطلب منه ان يفدى نفسه ويشير عليه أن (يسلك) ومعناها عندهم ـ هات ما يخلصك ويعتق رقبتك من هذا البلاء ، فيؤدى المسكين ما يطلب منه مرغما وما يخلص به نفسه يقتطفه ولا ريب من قوت عياله فيبيعه بالثمن البخس وقد برهن ما فى بيته من ماعون .

ونشاط حلاق الصحة واهماله يتوقف على مقدار مايقوم للطبيب من خدمات فان حقق مايرجوه منه فهو العامل النشيط والا كان غير قائم بعمله وينهى أمره بالخروج من وظيفته .

ومن أعمال حلاقى الصحة بالقرى التى يكتسبون بها رضا

الطبيب أن يأتوا اليه بالمرضى من أهل القرى لكى يعالجهم .

ونقف مما نعلم عن بعض أعمال بعض اطباء المراكز عند هذا الحد حتى لا نثقل عليهم وعلى الناس لأن قولة الحق ـ على كثير من الناس ـ ثقيلة غير محببة .

وهنا نضع العلم وحسبنا ما بينا وما صورنا .

خاتمـــة

هذا الكتاب الذى ننشره اليوم على الناس عن (حياة القرى) كان من قبـــل فصولا أتيح لنا منذ ثلث قرن أن ننشرها فى الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية .

وقد صورنا فيما كتبنا هـــذه الحياة تصويرا صادقا « جعـــل الناس يعيرونها التفاتهم لما تضمنته من حقـــائق ودقائق » وقد بذلنا الجهد فى ذلك لكى تبقى هذه الصورة الصحيحة محفوظة على وجه الدهر ويقرأها الناس جيـــلا بعد جيـــل ويقارنوا بينها ـ فى أيام نشرها ـ وبين ما يأتى به الزمن من بعدها .

وانى اذ اعيد نشر هذه الفصول اليوم مجموعة فى كتاب فانما اعرضها كما هى بصورتها التى نشرت بهـــا اول مرة بغير أن أغير منها شيئاً .

وان من يلقى نظرة على قرانا بعد قيام الثورة ليجـــد انه قد سرت فيها حركة شاملة من التطور لعل كثيرين من ابناء هذا الجيل لا يحسونها ، ولا يلتفتون اليها لجهلهم بما كان قبلها ، ولكنهم يستطيعون فى يسر وســـهولة ان يتبينوا من الصورة التى عرضناها فى هذا الكتاب اين كانت قرانا بالأمس ، وكيف أصبح حالها اليوم .

« محمود أبو ريه »

فهرست